

احمد الشيرازي

المدرس بالزهد الشريف

أئمة الأمة

وعبيدة عامر بن الجراح

تقديم من القرآن الكريم

« محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء
بينهم ، تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً
سيامهم في وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم في التوراة ،
ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ
فأستوى على سوته يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ، وعد
الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجر أعظماً »

« سورة النحل »

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

نحمد الله على نعمه وآلائه ، ونصلي ونسلم على رسوله
وأَنْبيائه ، ونسأله التوفيق فى القول والعل ، فهو الذى
بقدرته وجلاله تم الصالحات .

هذه دراسة لحياة البطل الإسلامى الكبير ، والصحابى
الجليل أبى عبيدة ، وقد حاولت فيها أن أرسم بالقلم صورة
لشخصه وأخلاقه وجهوده ، فتكون غذاءً روحياً للقارىء
المؤمن ، ومثلاً عالياً للدارس المنصف ، ولعل فيها مع ذلك
قدوة للمجاهدين ، وأسوة للموقنين ، وعظة للمغتربين ، وصلة
بين السابقين واللاحقين ...

إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ، وما توفيق إلا
بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

أحمد الشرباصى

من علماء الأزهر الشريف

القاهرة ،

تمهيد

جاء رسول الإسلام محمد عليه الصلاة والسلام إلى العالم
المحائر المضطرب ، مجيء المنقذ من الحيرة ، المهادي من الضلال ،
في يمينه القرآن المجيد الذي أخرج الناس من الظلمات إلى
النور ؛ فترك محمد بذلك أخلاذ الآثار في الإنسانية ، مما لم
يتناول إليه ، أو عما لم يقدر عليه زعيم أو مصلح ؛
وشتان بين معتز برأيه وعبقريته ومجوده ، وبين رسول صنعه
الله على عينه ، وأيدته قوة السماء ، وعصمه الله القوى
القدير ...

ولما استجاب محمد لداعي ربه ، ولحق بالرفيق الأعلى ، لم
تقطع الآثار الروحية والدينية التي أثرها في الإنسانية بدين
ربه الكريم ، وبهديه العظيم ، وسنته المطهرة ، بل ازدادت
سيرته وتاريخه بسبب ذلك التماعاً وارتفاعاً ؛ فعكفت العقول
والأقلام والألسنة ، تكتب عن محمد ، وعن دين محمد ،
وعن سنة محمد ؛ وظهرت في ذلك آلاف الأسفار والكتب ،
ولا تزال تظهر لها أمثال وأمثال ...

ولقد كان محمد صلوات الله عليه رسولا نبيلًا ، ومصلحًا جليلًا ،
لم تظهر عليه ، ولا في تصرف من تصرفاته ، ولا في حركة

من حركاته ، سنة من سمات الاثره ، أو علامة من علامات حب الذات ؛ بل لقد تعب حيث استراح غيره ، وجاع حين شبع سواه ؛ وكان يرى نفسه مسئولاً عن تخرج أتباعه أبطالا في كل ميدان من ميادين الحق والشرف والمجد ؛ فلم يكن كالكثرة الغالبة من زعماء الدنيا وعشاق المناصب ، الذين يحاولون بكل جهد ووسيلة أن يمتلكوا أسباب السيطرة والسلطان ، فاذا بلغوا ما أرادوا ، بطريق مشروع أو غير مشروع ، جمعوا أزمة المجد والتصرف والشهرة في أيديهم ، فكل منهم يحرص بما أوتي من حيلة وبراعة أن يكون هو وحده النجم الساطع وغيره نكرات ، وأن يكون هو العملاق وغيره الاقزام ، وأن يكون هو المدحوش المثني عليه بكل لسان ، وأن يكتفوا هم بالسماح والاستحسان ...

نعم لم يكن رحمة الإنسانية وهادي البشرية محمد كذلك ، بل كان لا يميز نفسه بشيء ، ولا يستأثر دون أصحابه بشيء ، وكان فيهم كأحدهم ، وكان حريصاً على تخريجهم أبطالا كبارا ، ليكونوا نعم الخلفاء من بعده ، فيحملوا شريعته وهديه إلى الناس ، حتى يظل الوعد الإلهي بحفظ الذكر ، وبقضاء الدعوة ، قائماً متحققاً صادقاً ؛ ولذلك كان صلوات الله

عليه يهيء لأغلب صحابته - بل لجميع صحابته - حسب طاقته وإمكانه - الظروف والمناسبات التي يظهرون فيها ، ويبدون خلالها ما كمن في أشخاصهم من هبات وعبقريات ؛ وإذا ما تجلّى في أحدهم شيء من ذلك فرح به وهش له ، وأثنى عليه ورجا منه المزيد ؛ وما كان يمنعه عن ذلك الإظهار ؛ وذلك التكريم صغر السن ، أو قلة المكانة ، أو تواضع النسب ، أو صالة الحسب ؛ وصدق القرآن حين يقول فيه :

« لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم ، بالمؤمنين رؤوف رحيم » .

ومن هنا تخرج في مدرسة محمد العظمى كثير من القواد والعظماء ، والعلماء والفقهاء ، والزهاد والأتقياء ، والمصلحين والحكماء ، حتى صدق رسول الله صلوات الله وسلامه عليه يوم قال : « أصحابي كالنجوم ، بأيهم اقتديتم اهتديتم » .

وكان رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام كان يريد أن يجعل مبادئ دينه ، وقواعد هديه ، وتعاليم سنته ، حقائق ماثلة في أناس وأشخاص ، فيكون ذلك التطبيق وتلك التربية العملية أفضل بكثير من تسطير السطور ، وتقييد النصوص مهما كانت هذه النصوص عظيمة سامية ، منطوية على أجل مقاصد الخير والحق والفضيلة ...

ولقد قبل لداعية إسلامي كبير ، كان يكثر من دروس التهيب وخطب التأديب ، في بلاغة وتأثير ، دون أن يكتب مؤلفاً : لماذا نراك تقول خطباً ، ولا نراك تؤلف كتاباً ؟ ... فقال ذلك الداعية الحكيم : إنني أريد أن أكون رجلاً ، ولا أريد أن أسطر أقوالاً .. وكأني بهذا الداعية اللامع قد استهدى في ذلك بهدى محمد صلوات الله عليه ، فقد كانت الحصيلة الواضحة في المنهاج الموضوع لمدرسة النبوة هي العناية بتطبيق النصوص والمبادئ ، أكثر من تكرير هذه النصوص وتلك المبادئ ؛ وإنه لسهل عليك جداً أن تحفظ الكثير من الحكم وبليغ الأقوال ، ولكن الذي يحتاج إلى مجهود هو أن تحول تلك الأقوال إلى أعمال ... وإنك لتستعرض قوائم الذين تربوا في مدرسة محمد وتخرجوا فيها ، فإذا جموع وجموع ، كل فرد منها قد نبغ وسبق ، وترك في التاريخ صفحات عاطرة ، تتردد فيها الأبصار فتستضيء بها البصائر ؛ وعلى الرغم من كل هذا النبوغ وذلك السبق ، فقد ظلت شخصية محمد صلوات الله عليه بسيرته وسنته بديراً ساطعاً وسط هذه الهالة من الكواكب والنجوم ، وزاد ذلك البدر سطوعاً ، أن السكاكين والخاطفين داروا حول الشخصية المحمدية ، فأبدأوا في القول عنها وأعدوا ،

واتخذوها مادة باقية دائمة للكتابة والخطابة ؛ وهذا جميل ومقبول ؛ وكذلك من الجميل والمقبول أن ينعطفوا أحياناً عن الحديث في الرسول إلى الحديث في خلفائه الراشدين الأربعة رضوان الله عليهم أجمعين ، لأنهم هم الذين ورثوا تبعات الرسالة ، وحفظوا الأمانة من بعده ، وكانوا متبعين لا مبتدعين ...

ولكنه من الخير بجوار هذا الحديث الفياض المعاد عن الرسول وخلفائه أن نتحدث عن أعلام الصحابة الآخرين ؛ ففهم من كان يصلح للخلافة لو جاءها أو جاءته ، وفهم آيات من آيات الله في عبادته ، تتجلى منها العظمة والبطولة ومكارم الأخلاق ؛ وإذا لم نتحدث عن هؤلاء فسينسأم الأخلاف ، وسنجد بطاول الأمد ما كان لهم من فضل وأثر ، وسنوهم غير الواقفين على التاريخ الإسلامي أن المدرسة المحمدية لم يكن فيها إلا زعيمها وأربعة طلاب نجباء ، هم الأربعة ، الخلفاء ، وأن هذه المدرسة قد عقيمت بعد هؤلاء الأربعة فلم تلد بعدهم عظما ، ولم تخرج عبقرياً ، مع أنها خرجت من القادة الأئمة عشرات عشرات وعشرات .

ومن هؤلاء الأئمة القادة ، الذين نود أن نصحبهم في حياتهم ، وندرسهم في مواقفهم الالامعة ، ونقدم من أقوالهم وأعمالهم نماذج يستهدى بها ويستضاء ، البطل الإسلامي الكبير أبو عبيدة عامر بن الجراح رضوان الله عليه ...

من هو أبو عبيدة ؟

هو المسلم الجليل ، والمؤمن المقدام ، والصحابي الكبير ،
والعربي الفح ، عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال بن
أهيب بن ضبة بن الحارث بن فهر بن مالك بن النضر .. إلخ
ووالدته هي أميمة بنت غنم بن جابر بن عبد العزى بن
عامر بن عميرة ؛ وقد كان من نعمة الله على أمه هذه أنها
عاشت حتى أدركت الإسلام ، ووفقها ربها للدخول فيه ،
وهي أيضاً تلتقى من جهة أمها مع ابنها عامر في النسب عند
الحارث بن فهر .

وقال محمد بن سعد — فيما يرويه ابن عساكر — : د في
الطبقة الأولى من بني فهر بن مالك بن النضر بن كنانة
— وهم آخر بطون قريش — أبو عبيدة بن الجراح ،
وكنيته هي د أبو عبيدة ، وقد اشتهرت هذه الكنية ،
وغلبت اسمه الأصلي وهو د عامر ، حتى أصبح الكثيرون
لا يعرفونه ، أو لا يذكرونه باسمه ، بل بكنيته ؛ كما أنه
أصبح لا ينسب إلى أبيه بأن يقال : أبو عبيدة بن عبد الله
ابن الجراح ... إلخ ، بل ينسب إلى جده والد أبيه ، فيقال :

أبو عبيدة بن الجراح . ومثل هذا يحدث كثيراً في نسب
الكبراء والعظماء ..

ولقبه هو : « أمين هذه الأمة » .. وقد أطلق عليه هذا اللقب
نبينا الكريم عليه الصلاة والسلام ، فكساه بذلك حلة من
الثناء لا تبلى مفاخرها ، وطوق جيده بوسام دونه الأوسمة
وكيف لا وقد نعته بأنه أمين الأمة الناجية الوسطى ،
الشاهدة على الناس يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى
الله بقلب سليم ؛ والأمانة هنا جامع محامد وملتحى مفاخر ؛
والواصف هو الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم ١٢ ...
ولعله يمر علينا حديث آخر عن هذا الملقب فيما نستقبله من
هذه الدراسة ...

أبو عبيدة في الجاهلية

لم تنبسط صفحات التاريخ في العهد الجاهلي للحديث عن أبي عبيدة ؛ فقد كان العهد عهد جاهلية وأمية وتشتت موضوعات ؛ كما أن أبا عبيدة لم يكتب اسمه في سجل الخالدين إلا بنبعة الإسلام ، والجهاد الصادق المظفر لإعلاء كلمة الله رب العالمين ... ولن يصير أبا عبيدة شيء من هذا ، فأغلب الذين التفتت أسماؤهم في صدر الإسلام قد ضن عليهم التاريخ في العهد الجاهلي يبسط القول والحديث .

ورغم هذا فالتاريخ يحدثنا بأن أبا عبيدة كان جليلاً أثناء الجاهلية في نأديه ، مهيباً في قومه ، مستشاراً لديهم ، مشهوراً بحسن الرأي والدهاء ، حتى قيل في ذلك : « داهيتا قريش أبو بكر وأبو عبيدة بن الجراح ، ... ولعله لا يقصد من الدهاء هنا ما تعارف الناس عليه أخيراً في معنى الدهاء ، من أنه الاحتيال وبراعة المداورة والمحاورة ؛ بل يقصد به التفكير الصائب ، والنظر البعيد ، والرأي السديد .. ومن هنا اجتمع أبو بكر مع أبي عبيدة في قولتهم السائرة السابقة ، مع اختلاف طبيعة أبي بكر الهادئة الذاكرة عن طبيعة أبي عبيدة المجاهدة النائرة .. وهذه القولة تدل على مكانة ملحوظة لأبي

عبيته رضى الله عنه . إذ يكفي أن تقرنه مع أبي بكر
 في سبب ، وأبو بكر رضوان الله عليه هو من هو في
 جاهليته وإسلامه .. فكيف والقولة تجمع بينهما في صفة
 تدل على تهيو صاحبها من أول الامر ليكون شيئاً مذكوراً
 في هذه الحياة ١٥ ..

وسمى مكانة أبي عبيدة في الجاهلية مع علو رتبته في
 الإسلام ، من أسطح الدلائل على صدق الرسول صلوات الله
 وسلامه عليه يوم قال : « الناس معادن ، خيارهم في الجاهلية
 خيارهم في الإسلام إذا فقهوا » .

وإذا انطوى المرء على مواهب وقوى ملحوظة في الجسم
 أو العقل أو الروح ، فإنه يكون صاحب تأثير واسع فيمن
 حوله بوساطة تلك المواهب ؛ وإذا كان تأثيره باسبئاً وخطيراً
 من سوء التوجيه ، أو قلة التعليم ، أو ضلال البيئة ؛ فاحتاج
 هذا الشخص إلا إلى تحويل اتجاهه برفق وحكمة من شطر
 الضلال إلى شطر الاستقامة ؛ فإذا هو قوة خيرة ظاهرة ،
 كما كان قوة شريرة ظاهرة ؛ وفي ذلك ما فيه من الإشارة
 إلى البراعة في حسن توجيه القوى إلى الخير ، وجمل التآقي

لهداية الفحول من الرجال إلى شرعة الحق والبر، حتى يتسع
الانتفاع بهم في ميدان الرحمن .

ولم يشأ التاريخ المأثور عن الجاهلية أن يحدثنا عن العام
الذي ولد فيه أبو عبيدة ... وأين كان القوم الفارقون في شن
للغارات وشفاء الحزازات من الاهتمام بتسجيل سنوات الميلاد ؟ .
إلا أننا نستطيع أن نستنتج على وجه التقريب السنة التي
ولد فيها أبو عبيدة ، فقد ذكرت كتب السيرة أن أبا عبيدة
قد شهد غزوة بدر وهو ابن إحدى وأربعين سنة ، وغزوة
بدر كانت في السنة الثانية بعد الهجرة ، فيكون أبو عبيدة
قد ولد في العام التاسع والثلاثين قبل هجرة الرسول صلوات
الله عليه من مكة إلى المدينة ؛ وإذا تذكرنا أن الرسول
قضى قبل الهجرة ثلاثة عشر عاماً بعد بعثته في مكة نستطيع أن
نقول بتعبير آخر : إن أبا عبيدة قد ولد في العام السادس
والعشرين قبل مبعث النبي عليه الصلاة والسلام ...

سبق أبي عبيدة إلى الاسلام

« والسابقون السابقون ، أولئك المقربون » .. لقد ظهر نور الإسلام ليهدى الحيارى إلى سواء السبيل ، فغشى الكثيرون أبصارهم بحجب العناد والمكابرة والكفران ، وتردد البعض في مفترق الطرق فأخذتهم غواشى الريب والشك ، وسارعت « ثلة من الأولين » الى ضوء الله المبين ، فأذعنوا للدعوة واستجابوا لها واستضاءوا بها ، وكان لهؤلاء شأن أى شأن عند الله وعند رسوله ، وقد لاقوا من البشريات والتكريم من الرسول ما هو كفاء إقدامهم وإسراعهم إلى الدخول في الدين الجديد ، وهو لا يزال يتلس المنافذ إلى القلوب في خفية وحذر ...

من هؤلاء السابقين أبو بكر الصديق رضى الله عنه الذى لم يكتف بإسلامه وصدق معاونته للرسول ؛ بل كان يدعو إلى الإسلام سراً فى أناة وحكمة ؛ وكان يقبل على أناس يتخيرهم بأعينهم ، ويناجيهم حول الإسلام حتى يقنعهم بأحقية وجاله ؛ فيدخلون فيه طائعين محتارين ، وروى أن أبا بكر توسم فى أبي عبيدة بن الجراح ذكاه قلب وصفاء

فطرة ، فغده عن الإسلام ، فصرعان ما شرح الله صدره له ،
وأزال عن بصيرته حجاب الشك والريبة ، واستجاب لتوجيه
الصديق ، واخلاق مع نفر من كرام العرب فيهم أبو سلة بن
عبد الأسد ، وعبيدة بن الحارث بن المطلب ، وعبد الرحمن بن
عوف ، وعثمان بن مظعون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم
فأعاد عليهم شرح الإسلام ، وحببهم فيه ، فأسلم هؤلاء جميعاً
في ساعة واحدة ، وبذلك دخلت كتيبة جديدة في دين الله
فاعتز بهم واعتزوا به ؛ وكان ذلك في أول الدعوة ، قبل أن
يدخل النبي صلوات الله عليه دار الأرقم بن الأرقم ، وقبل أن
يتخذها مكاناً لدعوته وتبليغه .

ونحن نلاحظ أن أبا عبيدة قد دخل الإسلام وعمره يزيد
على الخامسة والعشرين ، ومعنى هذا أنه دخله وهو في وسط
عمره وزهوة شبابه ، فليس حدثاً صغير السن ، حتى يقال إنه
كان مسيراً مأخوذاً ، أو مخدوعاً مبهوراً بإنسان أو يمينان ؛
ولم يكن طاعناً في السن ، حتى يقال إنه قد وهنت عزيمته ،
وقارب الوقت الذي ينقضي فيه المرء بعد ضلال ، ويهتدى بعد
جموح ، بل أسلم وهو شاب مكتمل الجسم والعزم
والنفكير ؛ لو وجد قوة لدافعها وقاومها ، ولو وجد إغراء

أبو عبيدة من أهل الهجرتين

أسلم أبو عبيدة كما ذكرنا ، وكان من أهل السبق في الإسلام ؛ ولم يكتف بإسلامه وعكوفه على عبادة ربه ؛ بل أحسن صحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، واحتل في سبيل تلك الصفة ما احتل الكرام الأولون في صدر الإسلام من غنت واضطهاد ، وعذاب وإرهاق ؛ حتى رأى نفسه مضطراً للهجرة إلى الحبشة ؛ ثم هاجر بعد ذلك إلى المدينة ؛ فصار بذلك من أهل الهجرتين ؛ وهذا شرف لم ينله الكثيرون ؛ لأن الجمع بين الهجرتين في صدر الإسلام وسام عظيم من أوسمة الشرف والمجد ؛ إذ في الهجرة إلى الحبشة تعرض القوم لفراق الموطن والأهل والمال ، وتعرضوا لمشقات الرحلة والسفر ، وتعرضوا لركوب البحر الذي لم يعتادوا ركوبه ، ولا أهواله ، وتعرضوا للقدوم على بيئة جديدة ، وقوم غرباء لم يروهم من قبل ، فإما أن يحسنوا لقاءهم ، وإما أن يسيثوا إليهم ؛ فهو على كل حال بلاء واختبار ، وعند الامتحان يكرم المرء أو يهان ... ومن الامتحان نفهم معنى المحنة .

وفي الهجرة إلى المدينة وسام آخر من أغل أوسمة الفخار

بنعمة الله الكبرى ، إذ فيها أيضاً ارتحال وغربة ، وفراق
 لأوطان وأموال واستقرار ، وفيها إثثار لما عند الله على ما
 عند الناس ، وفيها تهيؤ للجهاد طويل في سبيل الدعوة ،
 وفيها بيع للنفوس والأرواح إلى الله العلي الشكور الذي اشترى
 من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ...
 ولذلك نرى القرآن الكريم يحتفل لشأن المهاجرين ،
 ويعطر ذكرهم فيه ، ويسجل لهم بإخلاصهم أعظم المكاتبة
 والثواب ، فراه يقول :

« إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله
 أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم » - البقرة ٢١٨ .
 ويقول : « فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوطانهم
 في سبيل الله وقتلوا وقُتلوا لم يكفرن عنهم سيئاتهم ولادخلنهم
 جنات تجري من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله والله عنده
 حسن الثواب » - آل عمران ١٩٥ .

ويقول : « إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم
 وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم
 أولياء بعض والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من
 شيء حتى يهاجروا وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على
 قوم بينكم وبينهم ميثاق ، والله بما تعملون بصير » - الأنفال ٧٢ .
 ثم يعود فيقول : « والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله

والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً لهم مغفرة
ورزق كريم . - الألقال ٧٤ .

ويقول : « الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله
بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون ،
- التوبة ٣٠ .

ويقول : « والذين هاجروا في الله من بعد ما ظنوا
لنبوتهم في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا
يعلمون ، الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون » - النحل ٤١ و ٤٢ .
ويقول : « ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا
ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم ،
- النحل ١١٠ .

ويقول : « والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو
ماتوا ليرزقنهم الله رزقاً حسناً وإن الله لهو خير الرازقين ،
ليدخلنهم مدخلا يرضونه إن الله لعليم حليم » - الحج ٥٨ و ٥٩ .
ويقول : « للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم
وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله
ورسوله أولئك هم الصادقون » - الحشر ٨ .

ولقد هاجر أبو عبيدة فأحسن الهجرة ، هاجر إلى الحبشة
أولاً ، وهاجر إلى المدينة ثانياً ، وجاهد أحسن الجهاد ،
فلينتظر أجزل الثواب ! ...

أمين هذه الأمة

كان من عادة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلقب صحابته الأكرمين باللقاب تصور فضائلهم ، وتزكي نفوسهم وتقدر جهودهم ؛ ولم تكن هذه الألقاب هينة رخيصة الشئ ، ولم يكن السبيل إليها مالا أو جالا أو نسباً ، بل كان طريق الوصول إليها إيماناً صادقاً وبقيةً بليغةً وعملاً موصولاً وتعباً مرهقاً في سبيل الله والدعوة ؛ ولقد أقبل أبو عبيدة رضى الله عنه على الإسلام راضياً مقتنعاً ، مخلصاً مثبته ؛ فكان لذلك شديداً في دينه ، عميقاً في عقيدته ، مخلصاً في صحبته ، متفانياً في خدمة الرسول وخدمة الدعوة ، مستمسكاً بعروة الله الوثقى التي لا انفصام لها ؛ فأنعم عليه الرسول بلقب كريم ، كان يقطعه عليه كثير من الصحابة ، وهو لقب : « أمين الأمة » . وبإله من نعت نبوى عظيم الدلالة ، يصور ما استبان للرسول في أبي عبيدة من إيمان وإخلاص وأمانة .

أخرج الحافظ الجزرى في أسد الغابة عن أنس قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لكل أمة أمين ؛ وإن أميننا - أيتها الأمة - أبو عبيدة بن الجراح » .

وأخرج ابن عساكر عن حذيفة قال : جاء أهل نجران (١) إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : ابعث لنا رجلاً أميناً ، فقال : « لا بعثن إليكم أميناً حق أمين ، ؛ فاستشرف لها الناس - أي تطلع لها الصحابة وطمع كل في أن يكون صاحب هذا النعت والفائز بتلك البشارة - فبعث النبي صلى الله عليه وسلم معهم أبا عبيدة بن الجراح .

وفي رواية : جاء العاقب والسيد صاحباً نجران إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالا : يا رسول الله ، ابعث معنا أميناً حق أمين ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نبعث معكما رجلاً أميناً حق أمين ، فاستشرف لها أصحاب محمد ؛ فقال النبي : « قم يا أبا عبيدة ، ! ...

ويروى ابن هشام الموقف في سيرته بالعبارة التالية :
 « ... فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : يا أبا القاسم ، قد رأينا ألا تلاءمك ، وأن تترك على دينك ، ونرجع على ديننا ؛ ولكن ابعث معنا رجلاً من

١ - نجران : بلدة بين هجر واليمن انتعرت فيها المسيحية في العصر الجاهلي ، وقد فتحها المسلمون سنة مئتين من الهجرة ، ولم يرض وفد نجران بالإسلام ، بل امتنعوا عن قبوله ، ورضوا بأعيان الجزية فكانت ألف حقة في صفر ، وألف حقة في رجب ، ومع كل حقة أوقية من الذهب .

أصحابك ترضاه لنا ، يحكم بيننا في أشياء اختلفنا فيها من أموالنا ، فإنك عندنا رضاء .

قال محمد بن جعفر : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اتوني العشية أبعث معكم القوي الأمين » : قال فكان عمر بن الخطاب يقول : ما أحببت الإمارة قط حتى إياها يومئذ ، رجاء أن أكون صاحبها ، فرحت إلى الظهر مهجرا ، فلما صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الظهر سلم ، ثم نظر عن يمينه وعن يساره ، فجعلت أظاول له ليراني ، فلم يزل يلتمس يبصره حتى رأى أبا عبيدة بن الجراح فدعاه فقال : اخرج معهم ، فاقض بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه .

قال عمر : فذهب بها أبو عبيدة !! ...

ولعلك تستطيع أن تلح فيما نستقبل من مواقف أبي عبيدة ومظاهر إخلاصه وإيمانه ، مسوغات ذلك التكريم الجليل ...

الله خير وأبقى

لقد كان أبو عبيدة عربياً خالصاً ، وفي بيته احترام شديد للآباء ، وخضوع مطلق أمام سلطانهم ؛ ولقد ظل أبو عبيدة على هذا الوضع سنوات طويلاً استمرت حتى زادت على خمس وعشرين ؛ ولكن الإسلام جاء فغذب عامراً إليه ، وعليه أن هناك ما هو خير من الآباء وأبني من الأبوة.. هناك العقيدة الدينية التي يفتديها صاحبها بالآب والام والولد والنفس ، وهناك الله رب الأرباب ، وسيد الآباء والأبناء وواهب الحياة وموجد الأحياء ؛ ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يكره أن يعود إلى الكفر كما يكره أن يقذف في النار » . وقال : « من أحب الله وأبغض الله ، وأعطى الله ، ومنع الله ، فقد استكمل الإيمان ، هاهو ذا الرسول صلوات الله عليه يهاجر ، ويتخذ من المدينة داراً للنصرة ومركزاً للقيادة ، ويؤاخي بين المهاجرين والأنصار ، ويعدهم خير إعداد للاتصاف من الكافرين الذين أخرجوا المؤمنين من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله واختار الرسول لأبي عبيدة المهاجر أخاً كريماً عظيماً من بين

الأنصار ؛ وهو سعد بن معاذ رضى الله عنه .

وبدأ الجهاد بين الكتيبة المؤمنة الناشئة ، وبين كتاب
الطغيان والكفران العاتية ؛ وحرص أبو عبيدة على أن
يشهد المشاهد كلها مع الرسول ؛ وكانت غزوة بدر أولى هذه
الغزوات ، وكان المسلمون يومها قلة في عددهم وعدتهم ؛ حتى
طمأن الله خواطرم وجنوبهم بنصرة الملائكة تأتيهم من السماء :
« ولقد نصركم الله بيذر وأنتم أذلة فأتقوا الله لعلكم
تشكرون » ؛ وكان أبو عبيدة رضى الله عنه من السابقين
المقدمين الثابتين يوم بدر ، ومن سوء حظه - أو من حسن
حظه - أن والده عبد الله كان يومئذ في صفوف المشركين ،
وخرج يقاتل المسلمين في بدر ؛ ورأى أبو عبيدة أباه في
صفوف الكافرين ، وإنه لولد يحترم والده ، وابن لا يستطيع
أن يحدد معاني الأبوة في قلبه ، ولكنه فوق هذا مؤمن قد
أسلم وجهه لله ، والله أعلى وأكبر ؛ وكأنما أراد أبو عبيدة
أن يوفق ما استطاع بين حق أبيه وحق دعوته ، فجعل يحذر
لقاء أبيه في المعركة ، وينأى بعيداً عنه ، يجاهد في جهات
غير الجهة التي فيها أبوه ، راجياً أن يكفيه غيره شأن أبيه ،
ولكن الوالد الكافر المدل بأبوته ، المتكبر بمنجنيته ، جعل يتصدى
لابنه ويتعرض ، والابن يحاذره ويعرض عنه ، ولكن
الوالد أكثر من التصدى والقصد ؛ فإكان من أبي عبيدة

رضوان الله عليه في الخالصين المخلصين ؛ إلا أن نسي الأبوة
والبنوة ، ولم يذكر إلا ربه ودعوته ؛ فأقدم على أبيه فقتله
لإزهاقاً لروح الباطل للطاغى وإحقاقاً لكلمة الحق المستضعفة
بين الباغين ؛ وكان ذلك العمل شاهداً جديداً من أنى عبادة
على يقينه وإخلاصه وأمانته ، وكان ذلك الإقدام نهاية الإيمان
عند المؤمنين ...

ويروى أنه قد نزل في ذلك قول الله تبارك وتعالى في
سورة المجادلة : « لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر
يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو
إخوانهم أو عشيرتهم ، أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم
بروح منه ، ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين
فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا
إن حزب الله هم المفلحون » .

وصدق الله العظيم حيث يقول في سورة التوبة : « قل إن
كان آباءكم وأبنائكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم ، وأموال
اقتربتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليهم
من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره
والله لا يهدي القوم الفاسقين » .

وصدق الشاعر المسلم يوم ترجم عن هذا المعنى السامى بشعره فقال
أبي الإسلام ، لأب لى سواه . إذا افتخروا بقيس أو تميم

أبو عبيدة يوم أحد

نكبت قريش يوم بدر نكبة كبرى ؛ واستطاع ثلاثمائة مسلم أن يدحروا قرابة ألف من المشركين ، فقتلوا منهم ويجرحوا ويأسروا ثم يغنموا ...

فاغتازت قريش وجمعت جموعها ، وخرجت بأشرافها ونسائها وقيانها ومعاذها وخمورها ؛ تريد لقاء المسلمين مرة ثانية في أحد ، ليأخذوا بثارات بدر ، وخرج الرسول بالمسلمين لقتال المشركين بعد أن خطب قومه وقال لهم : « لكم النصر ما صبرتم » . وأعجب بعض المسلمين بكبرتهم وقوتهم ؛ ولكن الله أراد غير ذلك .. أراد أن يذكرهم ويحذرهم ؛ فعصى الرماة أمر الرسول فاضطرب أمر الجميع ، وأقبلت الهزيمة بشدائدها ، وتقهر بعض وفر بعض ، وثبت قليل بجوار الرسول .

ولقد كان أبو عبيدة رضى الله عنه عند أحد أولئك الذين ثبتوا ورابطوا ، وأحاطوا بالرسول يدافعون عنه ويفدونه بأنفسهم ، ولما جرح ودخلت حلقتان من المغفر في وجهه الشريفة أقبل عليه أبو عبيدة وأخذ يعالج نزاعها بأسنانه ... وأبو عبيدة صحابي محب للرسول ، فهو إذ يحاول نزع الخيلتين

يحاول ذلك بلين ورفق حتى لا يؤذى الرسول ولا يؤلمه ولكن
الحلقتين غائرتان فلا بد لهما من شدة ما في الزرع حتى يخرجاه ،
وإن أبا عبيدة ليترقق تارة ، فيرى ألم الرسول ، فيريد أن يقطع
هذا الألم بسرعة فيشتد في الزرع ، فيخشى على الرسول عاقبة
ذلك ... وهكذا تتعرض نفسه أثناء ذلك لمختلف الأحاسيس
ومتناقض العواطف ، ولكنه يتجدد ، ويستعين بربه وينزع
الحلقتين من أوجنة الطاهرة الشريفة ؛ ولكنها تنزعان في
مقابل ذلك ثنيتين من أسنان أبي عبيدة رضى الله عنه ،
فأصيب بالهتيم ، وهو عيب في غيره ؛ ولكنه صار جمالا
عنده ؛ إذ حسن فيه بعد نزع الثنيتين ، ، فإِذا رأى قط
أحسن منه هتما ، كما يقول التاريخ ، وذلك بفضل البركة
النبوية ، وإِخلاص في العمل ، والتوفيق أولا وأخيراً من
الله تبارك وتعالى الذي لا يضيع أجر من أحسن عملاً ..
ولقد قص سيدنا أبو بكر الصديق رضى الله عنه وأرضاه
هذا الموقف بأسلوب واضح بليغ فقال :

« لما كان يوم أحد ، ورى الرسول - صلى الله عليه
وسلم - في وجهه حتى دخلت في وجنتيه حلقتا المغفر (١)

١ - المغفر : زرد من الفرم يحفظ الرأس والوجه وهو الخوذة .

أقبلت أسمى نحو الرسول ، وأقبل إنسان من المشرق
 يطير طيراناً ؛ فلما توافينا عند الرسول وجدته أبا عبيدة ،
 وقد سبقني فقال : أسألك بالله (يا أبا بكر) أن تتركني
 لأنزع من وجهه - عليه السلام - الحلقتين ، فزرعها حلقة
 حلقة ، وسقط مرتين على ظهره ، وسقطت له ثنيتان (١) ،
 فكان أثرم (٢) بعد هذا ، ١ ...

انظر - يا رعاك الله - إلى تعبير أبي بكر : « وأقبل
 إنسان يطير طيراناً » ... أأستبعد في ذلك عمق الحب من
 أبي عبيدة للرسول ، وصدق وفائه له ؟ ... ثم انظر إلى
 قول أبي بكر أيضاً : « وقد سبقني فقال : أسألك بالله
 يا أبا بكر أن تتركني لأنزع من وجهه عليه السلام الحلقتين ،
 أترى كيف تعجل الخير فحرص على أن يسبق فيه ؟ .. أرايت
 كيف سأل أبا بكر ، وأقسم عليه أن يترك له شرف القيام
 بهذا الواجب ، ولذا المحاولة لدفع الأذى عن رسول الله صلى
 الله عليه وسلم ؟ ! » .

أرضاك الله أيها الأمين العظيم ؛ بقدر ما أرضيت رسوله
 وحرصت على خدمته ، وحفظت الوفاء له .

١ - الثنيتان من الأضراس الأربع التي في مقدم النعم .

٢ - الأثرم : انكسار السن من أصلها .

تواضعه ورغبته عن التفاخر

قد يكون المرء قليلاً في حياته ، تافهاً في أمره ، حقيراً في مرتبته ، ثم يتعالى ويتفاخر ، ويدعى لنفسه ما ليس لها ، وذلك شر الناس ، وأضلهم طريقة ... وقد يبني المرء نفسه بنفسه ، ويحقق لشخصه ما يطمح إليه من المجد ، وما تتعلق به عينه من السمو والعظمة ، ثم يفتر ذلك المرء بما صنع ، أو يحب أن يعرف الناس ما بنى ، وذلك محدود الشر ، محتمل السوء ... وقد يصل المرء بجده واجتهاده إلى ذروة المجد ، وغاية العظمة ؛ ثم يتواضع ولا يتباهى ، ويجب أن يظل مجهولاً أو شبه مجهول ؛ وذلك هو الإنسان الرفيع الكامل ... وأبو عبيدة رجل قد شيد حياته بيديه ، وكسب المجد بنضاله وكفاحه ، وبلغ المنزلة المرموقة والقمة السامية ؛ ومع ذلك ظل حافظاً لخلق التواضع ، متحلياً بشيعة اللين والزهد ، معرضاً عن مواطن التباهى والفخار ، مستخفاً برعونة المنافسة الباطلة ، أو التسابق الفارغ ؛ وبقي يرى نفسه نفس رجل همه أن ينال كل يوم من الله أجراً ، وإن لم ينل في دنيا الناس ذكراً ...

وقف أبو عبيدة ذات يوم بين جنوده ، وهو أمير على

الشام ، فقال : « أيها الناس ، إني امرؤ من قريش ، وما منكم من أحمر ولا أسود يفضلني بتقوى إلا وددت أني في مسلاخه ، . أي في جلده : وفي هذه الجملة القصيرة البليغة أبان لنا أبو عبيدة أنه لا يرى لنفسه على أحد جنوده فضلا يتباهى به أو يتعالى ، وأنه يتعنى أن يرى واحداً من أولئك الجنود أكثر منه تقوى ، فيغبطه على ذلك ، ويود لو جعله الله في جلد ذلك الجندي التقى ، إعجاباً من أبي عبيدة به ، وحرصاً على أن يكون مثله في التقوى ...

وهذا الكلام حينما يصدر من رجل عظيم إلى الناس عامة يكون جليلاً ونبيلاً ، فكيف وهو يصدر من أمير عظيم إلى جنود مروسين له ، يسمعون منه ويطيعون ، ويرون فيه قدوتهم العالية ، ومثابهم الفريد ؟ ... لا جرم أن هذا القول يكشف عما انطبعت عليه نفس أبي عبيدة من تواضع وزهد . وثمة شاهد آخر على عزوف أبي عبيدة عن الأمانة ، وعلى عدم حبه لما تواضع الناس على حبه من مظاهر السيطرة ، ومواقف التحكم والسيادة ... روى ابن عساكر عن موسى ابن عقبة أن عمرو بن العاص لما كان في غزوة « ذات السلاسل » على مشارف الشام ، وخاف أن يؤخذ من جهته التي هو فيها ، وأن تصيبه الهزيمة ، بعث إلى رسول الله صلى

الله عليه وسلم يستنجد به ويطلب منه المدد والمعونة ، فندب الرسول صلوات الله عليه المهاجرين والانصار للخروج إلى تلك النجدة ، فانتدب أبو بكر وعمر ، مع طائفة من كرام المهاجرين ، وجعل الرسول أبا عبيدة عليهم أميراً ، فلما قدم أبو عبيدة بمن معه على عمرو بن العاص ، وكان عمرو رجلاً مقداماً طموحاً ، يحب أن يكون جامعاً بين ذكر الدنيا وأجر الآخرة ، قال عمرو لأبي عبيدة وجنوده : أنا أميركم ، وأنا أرسلت إلى رسول الله أستمدد بكم ... فقال المهاجرون الذين كانوا مع أبي عبيدة : بل أنت أمير أصحابك ، وأبو عبيدة أمير المهاجرين . فعاد عمرو يظهر حرصه على الإمارة قائلاً : إنما أتممت أمددت بكم ... وهنا أراد الرجل المتواضع أبو عبيدة أن يحل المشكلة وينهى المسألة ، فقال : اعلم يا عمرو أن آخر ما عهد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قال : «إذا قدمت على صاحبك فتطاوعا ، وإناك إن عصيتني لأطيعك» وسلم إليه الإمارة واستمع له وأطاع ...

ليس الأمر هنا مقصوداً على تنازل أبي عبيدة لعمرو عن الإمارة ، بل تبدو هنا شدة الحرص من عمرو على المطالبة بالإمارة ، وهذا قد يثير في نفس أبي عبيدة - وهو بشر - الرغبة في الدفاع عن شخصه ، والطلب لحقه ، والتنازع عن

مظنة الاستخفاف به ، أو عدم جدارته بالإمارة ... ثم تبدو مطالبة الجنود القادمين مع أبي عبيدة بأن يكون هو الأمير عليهم ، وهذه المطالبة قد تنبه غافلاً من أبي عبيدة ؛ وقد تلفته إلى شيء لم تتجه إليه همته أو رغبته من قبل ؛ وقد تثير فيه معنى الزهو والخيلاء والاعتزاز برأى المطالبين بإمارته ...

ولكن أبا عبيدة الأصيل في تواضعه ؛ الصادق في عزوفه عن مواطن التفاخر ، لم يثر في نفسه شيء من ذلك ، ولم يراجع عمراً فيما قال ، ولم يستجب لاتباعه فيما حرضوه عليه ، بل قدم عمراً إلى الإمارة ، لأنه يجاهد الله ، لا لعرض من أعراض هذه الحياة ...

وهناك موقف يقابل هذا الموقف ، مع اتفاق الموضوع ، فقد كان أبو عبيدة رضى الله عنه يحاصر أهل الشام ؛ وجاءه مدد يعينه ويساعده في مهمة الفتح ؛ وكان على رأس هذا المدد خالد بن الوليد ، فرحب به أبو عبيدة وأجل مقامه ومنزله وكان يرى لخالد فضل الإعانة والنجدة ، حتى إنه لما حان وقت الصلاة قال لخالد : تقدم فصل بالناس (إماماً) فأنت أحق ، أتيتني تمدني ...

ولكن خالداً لم ينس فضل أبي عبيدة ولا مآثمه ،

فرفض ذلك وقال : ما كنت لأصلي قدام رجل سميت النبي صلى الله عليه وسلم يقول فيه : « لكل أمة أمين ، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح » .

تستطيع أن تقارن بين هذا الموقف وموقف عمرو مع أبي عبيدة ؛ لتظهر لك صفة التواضع كاملة في نفس أبي عبيدة . ويقتضينا واجب الإنصاف ألا نترك هذا الجزء من الحديث دون أن نخرج فيه على مكربة لخالد رضى الله عنه في موقف المدد السابق ؛ فقد أمر الخليفة أبو بكر خالداً أن يذهب لينجد أبا عبيدة ومن معه ؛ وقال الخليفة لخالد في كتابه : « فإذا التقيتم فأنت أمير الجماعة » .

وكتب الخليفة أبو بكر كتاباً ثانياً إلى أبي عبيدة يقول فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد ، فأني قد وليت خالداً قتال الروم بالشام ، فلا تخالفه ، واسمع له وأطع أمره فأني وليته عليك ، وأنا أعلم أنك خير منه ، ولكن ظننت أن له فطنة في الحرب ليست لك ، أراد الله بنا وبك سبل الرشاد ، والسلام عليك ورحمة الله » .

يا لروعة البيان ! ... وبالسور الاخلاق ! ...
ويا لصراحة الرجال ! ... الخليفة يصارح فيقول لأبي عبيدة

إليك قد صرت مرموساً بعد أن كنت رئيساً ؛ ورئيسك هو خالد ، فاسمع وأطع ولا تخالف ، وهو أمير عليك ؛ ولكن ... لا تحسبن أنك عندى مهن أو ظنين ؛ فأنت عندى خير منه فى أمور ... ولكنى من جهة أخرى لم أعزلك افتثاً عليك ، ولم أعين خالداً ميلاً معه أو هوى له ؛ ولكن لأنى ظننت - وبالروعة التعبير بقوله ظننت ا - ظننت أن له خبرة بالحرب قد لا تكون لك كما هى له ا ... ظننت والله عنده علم اليقين ، ولذلك أسأل الله أن يريد د بنا وبك سبل الرشاد ، .. ا

ونعود إلى موضوعنا ... لقد تسلم خالد كتاب التعيين ؛ وتسلم أبو عبيدة كتاب العزل ، فإذا يبقى إلا التنفيذ ؟ .. ماذا يبقى ؟ ... بقى الكثير ، والكثير جداً .. بقيت أخلاق الرجال ، وما هى الرجال بدون أخلاق ؟ ...

لقد سارع خالد فأرسل إلى أنى عبيدة كتاباً يبلغه فيه الخبر بالطف أسلوب ، ثم يهون عليه أمر العزل أكرم تهوين ثم يسجل اعترافه بفضل أنى عبيدة ، ويثنى عليه بالخير والإحسان ؛ وما أجمل التقدير إذا جاء وإفياً كريماً من الأمير المقبل إلى الأمير المنصرف عن عرش القيادة إلى صفوف الجنود . كتب خالد يقول : د بسم الله الرحمن الرحيم . لأنى عبيدة بن الجراح من خالد بن الوليد .. سلام عليك فإنى

أحد إليك الله الذى لا إله إلا هو .. أما بعد ، فإنى أسأل
الله لنا ولك الأمن يوم الخوف ، والمعصية فى دار الدنيا ،
فقد أتمنى كتاب خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرنى
بالمسير إلى الشام ، وبالمقام على جندهما ، والتولى لامرهما ..
والله ما طلبت ذلك ولا أردته ، ولا كتبت إليه فيه ،
وأنت - رحمك الله - على حالك التى كنت عليها ، لا يعصى
أمرك ، ولا يخالف رأيك ، ولا يقطع أمر دونك ، فإنك
سيد من سادات المسلمين لا ينكر فضلك ، ولا يستغنى عن
رأيك ، تم الله ما بنا وبك من نعمة الإحسان ، ورحمنا
وإياك من عذاب النار ، والسلام عليك ورحمة الله .

أرأيت كيف قدم خالد ذكر أبى عبيدة على نفسه ؟
وكيف دعا بدعوات فيها تذكير بخوف الآخرة وذم لأعراض
الدنيا ؟ وكيف ذكر التولية فى تلييح ، ولم يذكر العزل
بتلييح أو تصريح ؟ . وكيف قطع على نفسه العهد ألا يفعل
شيئاً بدون أبى عبيدة ؟ وكيف أثنى على أبى عبيدة الثناء العاطر ؟
ذلك موقف حميد لخالد بن الوليد ، ومن يدرى فقد
نشهد فيما نستقبل موقفاً لأبى عبيدة يقابل فيه الجليل بالجميل ،
إلا على سبيل المقارضة . ولكنها طبائع الفحول من الرجال
تستقى من ينبوع واحد كريم ! ..

زهد أبي عبيدة

ويتصل بالناحية السابقة ناحية قرية منها في حياة أبي عبيدة ، وهي ناحية الزهد والورع ؛ وبعض الناس يزهدون زهداً كاذباً ؛ لأنه لا يجدون ما يطمعون فيه ، فيزهدون فيما لا ينالون ، ويعفون عما لا يقدرُونَ عليه ؛ وبعض الناس يزهدون زهداً لثماً خبيثاً ... يزهدون في القليل التافه ، نفاقاً ورياء ، وترتع أيديهم في الكثير الحرام عليهم من وراء ستار ؛ وتذكر في هذا المقام قصة ذلك الشاب الذي كان على عهد عمر رضي الله عنه ، وعثر على تمر ، فرفعها بين أصابعه ، وجعل يسير بين الناس قائلاً : يا من ضاعت له تمر ؟ ... وراة عمر فغضب منه وثار عليه وقال له : كلها يا صاحب الورع البارد ، ! ..

أما الزهد الحق والورع الصادق فهو أن يزهد المرء وهو قادر مستطيع سليم مالك ؛ ولقد كان أبو عبيدة رضي الله عنه قادراً على أن يكسب متاع الحياة خير الكسب ، فقد كان ظاهراً ، وكان قوياً ، وكان موهوباً في عقله وحيلته ؛ ولقد هينت له في الفتوح والمغانم فرص كثيرة لكي يجمع

ويعتلى ، ولكي يجمع ويشيد ؛ ولكنه تعفف وتورع وزهد وعاش فقيراً ، ومات فقيراً ، ولم يخلف وراءه ما يجعلنا نظن أن الدنيا كانت همه في يوم من الأيام .

أرسل عمر بن الخطاب يوماً إلى أبي عبيدة بأربعة آلاف درهم ؛ وقال لحاملها : انظر ما يصنعه فيها .. فقسمها أبو عبيدة وهو في مجلسه .. ثم بعث عمر بمثلها إلى معاذ ؛ فقسمها أيضاً إلا شيئاً قليلاً قالت له امرأته : نحن نحتاج إليه .. فلما أخبر الرسول عمر بذلك قال : « اخذ الله الذي جعل في الإسلام من يصنع هذا » .

ولقد روى هشام بن عروة عن أبيه قال : قدم عمر بن الخطاب الشام ، فلتقاه أمراء الأجناد وعظماء أهل الأرض ، فقال عمر : أين أخى ؟ . قالوا : من ؟ قال : أبو عبيدة ... قالوا : يأتيك الآن ، قال : فجاء على ناقة مخطومة بحبل فسلم عليه وسأله ؛ ثم قال للناس : انصرفوا عنا ... فسار معه حتى أتى منزله فزل عليه ، فلم ير في بيته إلا سيفه وترسه ، فقال عمر : لو اتخذت متاعاً ؟ - أو قال : شيئاً - قال أبو عبيدة : يا أمير المؤمنين إن هذا سيبلغنا المقيـل ..

وفي رواية عن ابن عمر أن عمر حين قدم الشام قال

لأبي عبيدة : اذهب بنا إلى منزلك : قال : وما تصنع عندي ؟
 ما تريد إلا أن تعصر عينيك علي ! قال : فدخل منزله فلم
 ير شيئاً ، قال أين متاعك ؟ لا أرى إلا لبدًا وصحفة وشنا
 (قربة) وأنت أمير ، أعندك طعام ؟ فقال أبو عبيدة إلى
 جونه (سلته) فأخذ منه كسرات : فبكي عمر ... فقال له
 أبو عبيدة : قد قلت لك إنك ستعصر عينيك علي : يا أمير
 المؤمنين يكفيك ما بلغك القيل ... فقال عمر : غيرتنا
 الدنيا كلنا غيرك يا أبا عبيدة ! ...

بين عمر وأبي عبيدة

في العام السابع عشر ، أو الثامن عشر - على خلاف بين المؤرخين - ظهر الطاعون في العراق ومصر ؛ ثم استقر بالشام وكان في الخلافة عمر بن الخطاب ؛ وحدث أن خرج عمر في تلك السنة غازياً ، ومعه جمع كبير من المهاجرين والأنصار ؛ فلما كان على مسافة من أرض الشام ، خرج إليه أمراء الأجناد وأخبروه بخبر الطاعون ، وخوفوه منه ، وأنباؤه أنه قد أهلك خلقاً كثيراً . وأشاروا عليه بالرجوع ؛ فأراد عمر قبل أن يقطع بأمر أن يستشير القوم ؛ فجمعهم وعرض الأمر عليهم ، فاختلفت آراؤهم ؛ فمنهم المشير بمواصلة التقدم ، ومنهم المشير بالعودة ، وكان من بين القائلين بالرجوع « مهاجرة الفتح » ... فأصبح عمر عاجزاً على الرجوع ؛ فقال له أبو عبيدة : أفراراً من قدر الله يا عمر ؟ فأجاب عمر : « لو غيرك قالها يا أبا عبيدة ؟ نعم نقرر من قدر الله إلى قدر الله ، أرأيت لو أن رجلاً هبط وادياً له عدوتان (ضفتان) إحداها خصبة والأخرى جديبة ، أليس يرعى من رعى الجديبة بقدر الله ويرعى من رعى الخصبة بقدر الله ؟ » ثم أراد عمر أن يستطلع رأى أبي عبيدة على جليته ،

وأن يعرف برهانه في قوله ، أو يقنعه بحجته ، فاختل به
 ناحية دون الناس ؛ وبينما الناس كذلك إذ أقبل عبد الرحمن
 ابن عوف ، وكان غائباً عن القوم ، لم يشهد خلافتهم بالأمس ؛
 فسأل عبد الرحمن : ما شأن الناس ؟ فأخبروه الخبر ، فقال :
 عندي في هذا علم ، قال عمر : فأنت عندنا الأمين المصدق
 فإذا عندك ؟ قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم
 يقول : إذا سمعتم بهذا الوباء ببلد فلا تقدموا عليه ، وإذا
 وقع وأتمم به فلا تخرجوا فراراً منه . فقال عمر : فله
 الحمد . انصرفوا أيها الناس ... وعاد بهم إلى الحجاز ...

هذه قصة التاريخ ، وتلاحظ فيها أولاً أن عمر قد أظهر
 في وده على أبي عبيدة احترامه له ، وتوقيره لشخصه ، فقوله :
 « لو غيرك قالها يا أبا عبيدة ! » ينطوي من غير شك على
 إجلال وإكبار ؛ ثم تلاحظ ثانياً أن كلا من أبي عبيدة وعمر
 لم يخطئ فيما ذهب إليه ، لأن كلا منهما نظر إلى الموضوع
 من جانب ، وحكم عليه حكماً صحيحاً صادقاً ، ومن الممكن
 الجمع بينهما والاتفاق على رأى في الموضوع يشملهما ، ويكونان
 لذلك الرأى دعامتين ينهض عليهما ...

أما أبو عبيدة رضى الله عنه فكان يريد أن يقرر كلمة

الرجل المؤمن الموقن ، الذى أسلم وجهه لله ، والذى اعتقد أن الأسباب كلها بيد الله . وأن المؤثر الحقيقى فى الأشياء هو الله ، وأن الذى يستطيع أن يسلب المؤثرات تأثيراتها هو الله وما تلك الأسباب الظاهرية إلا مظاهر أجراها الله وأجرى فيها ما أجرى ليظهر قدرته وسنته . وهو المسيطر عليها أولاً وأخيراً ، سبحانه هو الله الواحد القهار .

وأما عمر رضى الله عنه فكان يريد أن يقرر كلمة الرجل الذى يحسن التصرف والاختيار مع تأكيد الإيمان بالأقدار ، والذى يفهم أن الكون كله لله ، وأن الأمور جميعها بيد الله ، وأن اليمين واليسار ، والشمال والجنوب ، كلها من قدر الله وتحت قدر الله . والله قد أعطى المرء عقلاً وتمييزاً وكسباً ، فإذا أحسن التصرف والتمييز فتجنب الشر وصاحب الخير ، فلا يقال إنه قد فر من قدر الله ، ولكن يقال إنه انتقل من قدر الله إلى قدر آخر لله . ونحن حينما ذهبنا وأنى خللنا فى قدر الله ، وتحت سلطان الله . ألا إلى الله تصير الأمور .

وبهذا التفسير نستطيع فى يسر وسهولة أن نوفق بين الآثار التى جاءت بشأن المدى وظاهرها الاختلاف

أو التناقض ، وليس ثمة في الحقيقة خلاف أو تناقض ؛ وإنما هو الفهم السريع العاجل ، أو النظر السطحي الجزئي وعدم التدبر في معاني النصوص وأهدافها ومناسباتها هو الذى يوحى بذلك الحكم الخاطئ . . .

فقد جاء فى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا عدوى ولا هامة ولا صفر » فقال أعرابي : يا رسول الله ، فما بال الإبل تكون فى الرمل كأنها الظباء ، فيخالطها البعير الأجرب فيجربها ؟ . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فمن أعدى الأول ؟ » (ومراده أن الأول لم يجرب بالعدوى ، وإلا للزم الدور والتسلل ، بل بقضاء الله وقدرته ، فكذلك الثانى وما بعده وإن يكن الأثر الظاهر يرجع إلى العدوى ، والمخالط للجميع هو الله) ، والحكمة موجودة سواء ألاحت لنا أم دقت علينا ، والله هو اللطيف الخبير .

وفى حديث ابن مسعود الذى أخرجه الإمام أحمد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يعدى شيء شيئاً » قالها ثلاثاً . فقال أعرابي : يا رسول الله ، النقبة من الجرب تكون بمشفر البعير أو بذنبه فى الإبل العظيمة فتجرب كلها

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « فإجرب الأول ؟ لا عدوى ولا هامة ولا صفر ، خلق الله كل نفس ، وكتب حياتها ، ومصاها ، ورزقها ، (ومراده أيضاً أنه لا يعدى شيء شيئاً بقوة ذاتية فيه ، بل بقدره الله وتأثيره) هذه بعض النصوص في لفت النظر إلى العقيدة الصحيحة في أن المؤثر الأول هو الله ؛ وهناك نصوص مقابلة تدعو إلى الحيلة والحذر ، وعدم التعرض للأمراض المعدية ؛ ففي الصحيحين عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا « يورد ممرض على مصح ، (والمرض صاحب الإبل المريضة والمصح صاحب الإبل الصحيحة) .

وكذلك قال النبي صلوات الله وسلامه عليه « فر من المجذوم فرارك من الأسد . وقد تقدم كذلك أنه قال عن الطاعون « إذا سمعتم بهذا الوباء يبلد فلا تقدموا عليه وإذا وقع وأنتم به فلا تخرجوا فراراً منه (١) ، وقد استنبط الباحثون

(١) في سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي « وروي عن عامر بن سعد ابن أبي وقاص : حدثنا محمد بن المنذر عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أسامة ابن زيد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذكر الطاعون عنده ، فقال إنه وجس أورجز ، عذبت به أمة من الأمم ، وقد بقيت منه بقايا ، فإذا سمعتم به بارض فلا تدخلوها ، وإذا وقع وأنتم بأرض فلا تهربوا منها قال محمد بن المنذر : فحدثت بهذا الحديث عمر بن عبد العزيز ، فقال هكذا حدثني عامر بن سعد بن أبي وقاص .

المحدثون من هذا الحديث الأخير الإشارة النبوية إلى نظام
 « الحجر الصحي » الذي يزعم بعض الناس أنه مفخرة من
 مفاخر العصر الحديث ، مع أنه من تعاليم رسول الإسلام
 عليه الصلاة والسلام ...

ومن الممكن أن نخلص من هذا الاستعراض بملخصة ؛
 هي أن نعتقد اعتقاداً قوياً جازماً أن الأمور كلها بيد الله ،
 وأن التأثير أولاً منه ، وأن الأسباب الظاهرية عوارض
 وضع الله فيها ما شاء من التأثيرات ، وبستطيع أن يسلبها
 هذه التأثيرات عندما يشاء ؛ فليؤمن بالله أولاً ، ولنملا قلوبنا
 بجلاله ورحمته ، ولنتصح بأمره ، فلا نلق بأيدينا إلى
 التهلكة ، بل نتذكر أن الذي خلق الداء خلق الدواء ، وأن
 كل علة لها علاجها عدا الموت ، وشعارنا في ذلك قول
 الرسول : « اعقلها وتوكل » .

حفظه لحقوق سواه

لحق رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى ، وزلزلت الأرض بالمسلمين زلزالها لذلك الهول الشديد الذى لم يتوقعوه ، ولتلك النكبة الكبرى التى لم يرتقبوها ، مع أن الرسول بشر ، ومع أن القرآن الكريم قد قال عنه من قبل : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، وقال : « وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد ، أفإن من فهم الخالدون كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون ، . وقال : « إنك ميت وإنهم ميتون ، .

ونزل المصاب على أكثرهم نزول الصاعقة التى أفرعتهم وأذهبتهم ، واضطرب جبل الأمة اضطراباً مخيفاً ، وكان لا بد للأمة من راع يرعاها بعد موت نبيها صلى الله عليه وسلم ، ولا بد لها من خليفة يخلف الرسول فى تسيير الأمور وضبط النظام ، ومواصلة الدعوة إلى الله ، ونشر الإسلام بين الناس .

ولقد كان أصحاب محمد رضوان الله عليهم مشغولين

بالإيمان والجهاد أكثر من اشتغالهم بالرياسة والإمارة ؛
ولكن منصب الخلافة بعد رسول الله تطمح إليه عيون
الماجدين من المؤمنين ، فليس منصباً دنيوياً فقط ، ولكنه
أولاً وقبل كل شيء - منصب دين ودعوة وجهاد ، وفيه
يتيحاً للخليفة نهوض بتبعات وأعمال تزيد عند الله جلالة
ومشوبة ؛ فلا عيب ولا عجب أن تطمح إلى هذا المنصب
الإسلامي الكبير الكريم عين هذا أو ذاك من عيون الصحابة
العظام ، فلا يأتى الكرامة إلا لثيم ، ولا يعاف المجد إلا
حقير ، ولا يفر من تبعات الجهاد والدعوة إلا صغير
أو ضئيل ؛ وهؤلاء - أتباع محمد عليه الصلاة والسلام - كانوا في
الدنيا عما تقة بمجدهم وهمم وعزائمهم ، وكانوا في سبيل
مبادئهم يستهينون بكل خطير ، ولا يخشون أوقموا على
الموت أم وقع الموت عليهم ...

وكان الجلال المحيط بمنصب الخلافة لرسول الله يجعل
عيون الأمة تتطلع أول ما تتطلع في هذا الشأن إلى القلة
المصطفاة من أوائل السابقين إلى الإسلام الباذرين في دعوته
الظاهرين في ميادينه ، من أمثال أبي بكر وعمر وعثمان وعلى
حائرين كان أبو عبيدة حين ذاك ؟ . وهل تطلعت إليه هيون

المتطلعين طامعين أو طالبين أن يكون أبو عبيدة أحد المرشحين
لمنصب الخلافة .

لعل أنظار العامة يومئذ لم تكن تستقر طويلا على
أبي عبيدة - بخصوص هذا الشأن - كما تستقر على غيره ؛
ولكن الواقع أن كبار الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين
كانوا يرون أبا عبيدة في طليعة الصالحين لتولى هذا المنصب
الخطير ؛ فهذا عمر الفاروق يقوم بجولة استطلاعية في محيط
الصحابة ، ليرى كيف يختارون الخليفة ، وكيف يقضون
على الفتنة في مهدّها ، ويلقى عمر أبو عبيدة ، فيعرض عليه
أمر الخلافة قائلا : هلم يا أبا عبيدة أبايعك ، فأبى سمعت
رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إنك أمين هذه الأمة ! .
وهنا يظهر أدب أبي عبيدة وذوقه وحفظه حقوق سواء ،
ويظهر حرصه على مكارم الأخلاق أكثر من حرصه على
أسباب المجد ، وتظهر رعايته لحرمة أصحاب الفضل والحرم
أكثر من رغبته في المنصب أو المغنم ، حتى ولو كان مغنما
روحياً معنوياً ...

لقد تذكر أبو عبيدة هنا أبا بكر رضى الله عنه ، وتذكر
سبقه إلى الإسلام ، وتصديقه للرسول ، وبذله للمال في سبيل

الله ، وصحبته الطويلة الجميلة لمحمد ، وثناء محمد عليه في مواطن كثيرة ، واستخلافه له وهو مريض في الصلاة بالناس ؛ تذكر أبو عبيدة كل هذا فأجلب عمر قاتلاً : كيف أصلى - يا عمر - بين يدي رجل أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يؤمننا حين مرض (١) !

هذا موقف سريع تفهم منه أن رجلاً كعمر ، وهو البصير بالأمور الخبير بالرجال ، كان يرى أن أبا عبيدة أهل للخلافة وكان يرى أنه إن لم يكن الشخص الذي يجب أن يختار لها ، فهو على أقل تقدير في طليعة المرشحين لها ، الجديرين بحمل تبعاتها ...

ونحن نرى القوم في يوم السقيفة ، ونرى أبا بكر يتحدث مجماً وموحداً ، وفي آخر حديثه يقول : « وأنا أَرْضَى لَكُمْ أَحَدَ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ : عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ، وَأَبَا عُبَيْدَةَ »

(١) أي كيف أكون إماماً للمسلمين في الصلاة وفيهم أبو بكر ، لأن الخليفة كان يؤم للمسلمين . وفي رواية أخرى : « أتى عمر أبا عبيدة ، وذلك بعد وفاة النبي ، فقال : أيسطيدك لأيا ملك ، فأنت أمين هذه الأمة على أسان رسول الله . فقال أبو عبيدة لعمر : ما رأيت لك فبهة (سقطلة) قبلها منذ أسلمت ، أتبايعني وفيكم الصديقون وأنا ثنتين »

ابن الجراح ، .. فذلك شهادة أخرى من الرجل الذي أجمعت عليه الأمة واختارته خليفة لها بعد قليل من ذلك الحديث .. إنه يسوى بين عمر وأبي عبيدة في ترشيحها للأمر ؛ وفي ذلك عرفان لقدّر أبي عبيدة ؛ وفيه أيضاً مبلغ أدب أبي عبيدة ، حينما لم تحدّثه نفسه بأن يطمع في أمر ، بينما يوجد له من ولاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إمامة الناس من قبل .

ولو أسرعنا النقلة إلى آخر العهد بعمر في هذه الدنيا ، لرأينا صريحاً متخناً بجراح الاعتداء عليه ، وهو في الحالة التي يؤمن فيها الكافر ، ويتق الفاجر ؛ فكيف بالمؤمن الموقن البار ؟ ... ولرأينا يقول وهو يتحدث عن استخلفه : (ولو كان أبو عبيدة بن الجراح حياً لاستخلفته ، فإن سألتني ربّي : لم استخلفته ؟ قلت : إني ربي .. سمعت عبدك ونبيك محمداً يقول : لكل أمة أمين ، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة ابن الجراح) ...

أبو عبيدة في الميدان

لا يستطيع مطالع لصفحات الجهاد الأولى في صدر الإسلام ، أن ينكر مقام أبي عبيدة المشهود المذكور المشكور في ساحة الجهاد والفتح ، ولقد كان أبو عبيدة حساماً في يد أبي بكر وعمر ؛ وجهاء يميناً وشمالاً ؛ فصد غارات ، وقهر جيوشاً ، وفتح بلاداً ، ونشر دعوة ، وعاش ما عاش في الميدان ، وجاهد ما جاهد ، وغنم ما غنم ، ورأس ما رأس ، وقاد ما قاد ؛ وظل على الرغم من كل ذلك يعيش جندياً متخففاً من أثقال الفخر ، وأعراض الحياة ، وزينة الدنيا ، فلا عجب ، ولا تمتع ، ولا تملك ؛ عاش فقيراً ، وجاهد طويلاً ، وكسب للمسلمين كثيراً ؛ ومات فقيراً ...

لقد كان أبو عبيدة يلى في أول الأمر شئون المال في خلافة أبي بكر - فهو له كوزير المالية اليوم - ؛ ولما بدأ أبو بكر في قتال الروم ؛ عقد لواء لأبي عبيدة ؛ وأمره بالتوجه نحو البلقاء فحمص ؛ وكانت هناك ألوية أخرى في هذه الحرب ؛ ولكن أبا بكر قال لاسحاب الألوية : إذا اجتمعتم على قتال غاميركم أبو عبيدة عامر بن الجراح .

وذهب جيش أبي عبيدة إلى معان ؛ ثم مواب ثم الجابية ؛ ثم حصص ؛ ولما اقتضى نظام الحرب اجتماع القواد كتب عمرو بن العاص — أحد القواد — إلى زملائه يقول : (إن رأى الاجتماع ، وذلك أن مثلنا إذا اجتمع لم يغلب عن قلة ، وإذا نحن تفرقنا لم يبق الرجل منا في عدد يقرن فيه لأحد من استقبلنا وأعد لنا) .

فجاء أبو عبيدة عن حصص ، ورد إلى أهلها الجزية التي أخذها منهم قائلًا : (قد شغلنا عن نصرتكم ، فأنتم على أمركم) . وهذه الكلمة من أبي عبيدة تبين لك بوضوح عدالة الإسلام ، وتفهمك أن فتوح المسلمين لم تكن للبغى والظفیان ؛ وإنما كانت للهدى ونشر الإيمان ، كما تفهمك أن هذه الروح الطيبة لا بد أنها تدفع إلى أحسن معاملة ، وألطف سياسة مع الأقربين والأبعدين ؛ ولذلك كان جواب أهل حصص أن قالوا : « ولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم » .

ثم صار أبو عبيدة بعد ذلك قائداً عاماً للجيش الإسلامي في سورية ، وزحف مع خالد إلى دمشق ، وحاول خالد أن يفتحها عنوة .. ولكن أهل دمشق طلبوا الصلح على يد أبي عبيدة الهادي الوقور ؛ وعقدت معاهدة صلح تم بها فتح دمشق على المقاسمة بالشرط في الدينار والعقار ، وكان ذلك

في العام الرابع عشر من الهجرة .

وفي موقعة « اليرموك » كان أبو عبيدة يقود فرقة القلب فيها ؛ وكان يمشي بين الجنود موجهاً ومنهما ، ومشجعاً ومدافعاً ، ويقول : « عباد الله .. انصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ، ولا تتركوا صفوفكم ، ولا تخطوا إليهم خطوة ، ولا تبدأوهم بالقتال ، وأشرعوا الرماح ، واستتروا بالدرق (الترس) والزموا الصمت ، إلا من ذكر الله عز وجل في أنفسكم .. »

وفي هذه الكلمات القصار نلح من أبي عبيدة حسن الجمع بين إحكام العدة ، وإتقان المقاتلة ، وإيقاظ الإيمان ، والاعتماد على الله ؛ وقد اشترك بعض نساء المسلمين في هذه الغزوة . خرجن مع أزواجهن أو أبنائهن ، ووقفن في الصفوف الخلفية ، ومنهن الحجارة والعمد ، والرماح والسيوف ؛ وتقدم أبو سفيان إليهن - وكانت امرأته هند فيهن - فقال : « لا يرجع إليكن أحد من المسلمين إلا رميته بهذه الحجارة » ؛ وقال لمن حاله : يا نساء المسلمين .. أيما رجل أقبل إليكن منهزماً فاقتلنه ، ؛ وكان النساء يومئذ يلقن لرجالهن : لستم بمولتنا لأن لم تذهبن معنا (أى لأن لم تدافعوا عنا) .

وفي هذه الغزوة خرج معاذ وجعل يقول : « يا أهل

القرآن ، ومتحفظى الكتاب ، وأنصار الهدى والحق . إن
رحمة الله لا تنال ، وجنته لا تدخل بالآمانى ، ولا يؤتى
الله المغفرة والرحمة الواسعة إلا الصادق المصدق ؛ ألم تسمعوا
لقول الله : (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات
ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليكن
لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً
يعبدونى لا يشركون بى شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك
هم الفاسقون) ؟ فاستحيوا رحمكم الله من ربكم أن يراكم غراراً
من عدوكم وأنتم فى قبضته ، وليس لكم ملتحذ من دونه ،
ولا عز بغيره . .

وبما قاله عمرو بن العاص يومذاك : « يا أيها المسلمون ..
نعضوا الابصار ، واجشوا على الركب ، وأشرعوا الرماح ؛
فإذا حملوا عليكم فأمهلوهم ، حتى إذا ركبوا أطراف
الأسنة ، فثبوا إليهم وثبة الأسد ، فوالذى يرضى الصدق
ويثيب عليه ، ويمقت الكذب ، ويمجزى بالإحسان إحساناً ؛
لقد سمعت أن المسلمين سيفتحونها كفراً كفراً ، ومصرأ مصرأ ؛
فلا يهوانكم جموعهم ولا عدوهم ؛ فإنكم لو صدقتموهم الشد
تطايروا تطاير أولاد الحجل ،

وبما قاله أبو هريرة : « سارعوا إلى الخور العين ، وجوار

ربكم عز وجل في جنات النعيم ؛ ما أتم إلى ربكم في موطن
بأحب إليه منكم في هذا الموطن ؛ ألا وإن للصابرين فضلهم ...
وعاد أبو سفيان يقول فيما يقول : يا معشر المسلمين ..
أتم العرب ؛ وقد أصبحتم في دار العجم ، منقطعين عن
الاهل ، فائين عن أمير المؤمنين وإمداد المسلمين ؛ وقد
والله أصبحتم بإزاء عدو كثير عدده ، شديد عليكم حنقه ؛
وقد وترتموهم في أنفسهم وبلادهم ونسائهم ؛ والله لا ينجيكم
من هؤلاء القوم ، ولا يبلغ بكم رضوان الله غداً إلا صدق
اللقاء والصبر في المواطن المكروهة ؛ ألا وإنها سنة لازمة ،
وإن الأرض وراكم ، وبينكم وبين أمير المؤمنين وجماعة
المسلمين محاربي وبراري ، ليس لأحد فيها معقل ولا معدل
إلا الصبر ، ورجاء ما وعد الله فهو خير معول ، فامتنعوا
بسيوفكم وتعاونوا ، ولتكن هي الحصون .. يا معاشر أهل
الإسلام ؛ حضر ما ترون ؛ فهذا رسول الله والجنة أمامكم ،
وهذا الشيطان والنار من خلفكم .. الله الله .. إنكم دارة
الإسلام وأنصار الإسلام ، وإنهم دارة الروم وأنصار
الشرك ؛ اللهم إن هذا يوم من أيامك ، اللهم أنزل نصرك على
عبادك

وفي أثناء القتال كان معاذ كلما سمع أصوات الروم قال :

اللهم زلزل أقدامهم ، وأرعب قلوبهم ، وأنزل علينا السكينة ،
والزمتنا كلمة التقوى ، وحبب إلينا اللقاء ، وأرضنا بالقضاء ..
ولقد تقدم رجل يوم ذاك إلى خالد وقال له مشفقاً : ما
أكثر الروم وما أقل المسلمين ! فقال خالد : وبك . أتخوفني
بالروم ؟ إنما تمكث الجنود بالنصر ، وتقل بالخذلان ، لا
بعدد الرجال ؛ والله لو ددت أن الأشقر (فرسه) يرأ من توجعه ،
وأنتهم أضعفوا العدد .

وتقدم رجل عزم على الشهادة إلى أبي عبيدة وقال له :
إني قد تهيأت لأمرى ، فهل لك من حاجة إلى رسول الله
صلى الله عليه وسلم ؟ .. قال أبو عبيدة : نعم ، تقرئه عنى
السلام ، وتقول له : يا رسول الله ، إنا قد وجدنا ما
وعدنا ربنا حقاً .. وتقدم هذا الرجل فقاتل حتى استشهد .
وبعد فتح أبي عبيدة لدمشق مرة ثانية أمره عمر بالتوجه
شمالاً لتتبع فلول الروم ؛ فاستولى على حماة وشيزر ، وعاد
فافتتح المعرة ، وتوجه إلى قنسرين فصالحه أهلها ، وكذلك
فتح حلب وأنطاكية وغيرها من البلدان (١) .
ويجب أن نلاحظ هنا أن الأخبار والروايات عن هذه

(١) روى ابن عساكر أن أبا عبيدة هو أول من سمي « أمير الأمراء »

الحروب والفتوح قد حدث فيها اضطراب واختلاف من ناحية التواريخ والامكنة والمناسبات وبعض الأشخاص ؛ ويرجع ذلك إلى عدم العناية في ذلك الوقت بالتسجيل المضبوط أو الوصف الدقيق ، أو التعمين الزمني أو المكاني المحدد ، وإلى تعدد الوقائع وكثرة الفتوح ، وإلى أن البلد من البلاد كان يفتح ثم يتركه الجيش لسبب من الأسباب ، ثم يعود إليه فيفتحه مرة أخرى .. وهكذا تكررت الحوادث فاشتبه بعضها ببعض.. ومن الواجب على المؤرخين المتفرغين ، والباحثين المختصين بأمثال هذه الأمور أن يكفوا عنها بحثاً وتنقيباً وتصحيحاً وسلسلة ؛ حتى لا يقع المطالع في الحيرة والاضطراب حينما تتشابه أمامه الحوادث ، أو تتعارض ظاهرياً .

وليس من غرضنا في هذا البحث — بطبيعة الحال — أن نحرق مثل هذه البحوث ، فانما نكتب صورة لحياة أبي عبيدة تتجلى فيها طباعته وأخلاقه وأعماله أكثر من أى شيء آخر .

• • •

وبحلو لنا قبل أن نترك هذا الجانب من أحاديث الميدان أن نتمتع قارئنا بطريقة من طرف أبي عبيدة في باب الديمقراطية الصحيحة ، والأخوة الإسلامية الصادقة ، ستكون

زهرة يفرح بها عشاق مكارم الأخلاق ، ويضيق بها أهل الجبوت والنفاق :

لما تم الصلح بين أمير جيوش المسلمين في الشام أبي عبيدة وبين أحد قواد الروم ؛ جاءوه بطعام فاخر وقالوا له : هذا طعام الأمير ؛ فقال أبو عبيدة : وأطعمتم الجند مثل هذا الطعام ؟ .. قالوا لم يتيسر لنا ذلك .. فقال أبو عبيدة : فلا حاجة لنا فيما يقتصر علينا وحدنا من ألوان الطعام ؛ وبئس المرء أبو عبيدة إن صحب جنداً من بلادهم أهرقوا دماءهم دونه أو لم يهرقوا ، فاستأثر عليهم بشيء يصيبه ؛ لا والله ؛ لا فأكل إلا عما يأكلون ...!

نبل وعزوة

حب الرياسة طبيعة في الإنسان ؛ وقد يطمع في الرياسة من ليس أهلا لها ؛ وكثيراً ما يتناول الأقدام يريدون أن يكونوا عمالقة ؛ ومتى وصل الواحد منهم إلى منصب اغتر به واستمسك ؛ فلو فرض وعزل منه ، أو حيل بينه وبينه ملاً الدنيا صراخاً وعويلاً ... وإذا كان هذا شأن المبطل المدعى ؛ فإنه لعزير على نفس الكريم كل العزة أن يهون ، وصعب على القائد بحدارة كل الصعوبة أن يعزل ، وشديد على الرفيع الجيد أن يهبط من عليائه على غير توقع أو انتظار ؛ وحين يقع ذلك لسبب من الأسباب ، أو حكمة من الحكم ، يحتاج الموقف العصيب إلى ألمحى أريب يعالجه بالنظر البعيد ، والرأى السديد ؛ والتنفس السامية ، والهمة العالية .

هذا موقف خالد حينما عزله عمر رضى الله عنهما ... لقد كان خالد ، سيف الله المسلول ، وبطل الإسلام المظفر ، وغضنفر الجهاد في الجزيرة والشام ، وهو القائد الذى لم يغلب قط في حياته .. ولقد كان خالد زعيماً للجيش المجاهد في الشام على آخر عهد أبى بكر ؛ ثم لحق أبوبكر بربه والجيش الإسلامى بقيادة خالد يجهاد فى اليرموك ، أو نحوها ؛ وتولى

الخلافة عمر ، وجاء بنظامه الصارم في حساب الولاة والقواد ،
 ولعله وجد في نفسه شيئاً أو أشياء على خالد بسبب قتل خالد
 امرأة في فتح مكة مع نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن
 القتال ، وبسبب موقف خالد من بنى جذيمة ، حين قتل منهم
 من قتل ؛ مع أن الرسول صلى الله عليه وسلم نهاه ألا يقاتل
 أحداً إن رأى مسجداً ، أو سمع أذاناً .. وبسبب موقفه
 خالد من مالك بن نويرة حين قبض عليه خالد وقال له مالك :
 ابعتنا إلى أنى بكر فيكون هو الذى يحكم فينا ؛ فلم يطمع خالد
 وقال : لا أقالى الله إن أفلتت ؛ وتقدم إلى ضرار بن الأزور
 بضرب عنقه ؛ وبسبب أن الأشعث بن قيس أنشد خالداً
 قصيدة ، فأنعم عليه خالد بعشرة آلاف درهم فاعتبرها عمر خيانة إن
 كان المال من مال المسلمين ، وإسرافاً إن كان المال من مال خالد .
 لعل هذه أشياء مرت بذهن الخليفة عمر . ثم هناك عظمة
 خالد التى تبدت حتى اقتتن بها الناس ، وصاروا يرددون :
 خالد لا يقهر .. خالد لا تهزمه معركة ...! نخشى عمر أن
 يزيد الناس في اقتنائهم به ، فيكون من وراء ذلك ما لا تحمد
 عقباه ؛ ودليل ذلك أن خالداً بعد أن عزل قال لعمر : لم
 عزلتنى يا أمير المؤمنين ؟ المعجز أم لخيانة ؟ فأجاب عمر : لم
 أعزلك لواحدة منهما ؛ ولكنى كرهت أن أحمل فضل عقلك

على الناس .. ويؤكد هذا أن عمر قال فيه من قبل : لو كان قرشياً لساق العرب بعصاه (١) .

على كل حال ، فقد عزل عمر خالداً ؛ وله في ذلك اجتهداه وحكمته وإخلاصه ؛ ولا يزال من عبقرية خالد ولا من عظمت أن يعزل ؛ وإن يكن شديداً على النفس كل الشدة أن تنزل بعد ارتفاع ، وأن يرأسها من كان له بالأمس مرموساً .

بينما خالد يقود المعركة ويتصرف فيها ، وأبو عبيدة يسمع منه وبطبيع ؛ جاء كتاب الخليفة الجديد عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة يأمره أن يتسلم قيادة الجيش من خالد وفيه يقول : « بسم الله الرحمن الرحيم ؛ من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى أبي عبيدة عامر بن الجراح ؛ سلام عليك .. فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، وأصلي وأسلم على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد وليتك أمور المؤمنين ، فلا

(١) وكتب عمر إلى الأمصار في هذا الشأن يقول : « إني لم أعزل خالداً عن سخطه ولا خيانه ، ولكن الناس افتشوا به غشيت أن يوكلوا به ويبتلوا ، فأجبت أن يعلموا أن الله هو الصانع ، وأن لا يكونوا معرضين عنه . ولما ألقى خالد بعمر قال له : يا خالد ، والله إنك تلي لسكريم ، وإنك لم تلجئ إلى الجيب ، ولن تعاتبني بعد اليوم على شيء . »

تستحي فإن الله لا يستحي من الحق ؛ وإني أوصيك بتقوى الله العظيم ، الذي لا يفنى ويفنى سواه ، الذي استخرجك من الكفر إلى الإيمان ، ومن الضلالة إلى الهدى ؛ وقد وليتك على جند خالد ، فأقبض الجيش منه ، ولا تنفذ المسلمين إلى الهلاك وجاء غنيمة ، ولا تبعث سرية إلى جمع كثير ، ولا تقل : إني أرجو لكم النصر ، وإياكم والتغريب وإلقاء المسلمين في الهلكة ، وأغمض عن الدنيا عينك .

وفي رواية أنه كتب يقول : « أوصيك بتقوى الله الذي يبق ويفنى ما سواه ، الذي هدانا من الضلالة ، وأخرجنا من الظلمات إلى النور ؛ وقد استعملتك على جند خالد بن الوليد ، فقم بأمرهم الذي يحق عليك ؛ لا تقدم المسلمين إلى هلكة وجاء غنيمة ، ولا تنزلهم منزلا قبل أن تستريده لهم (تختبره) وتعلم كيف مأناه ، ولا تبعث سرية إلا في كشف من الناس ، وإياك وإلقاء المسلمين في الهلكة ، وقد أبلاك الله بي وأبلاك بك ، فغمض بصرك عن الدنيا ، وآله قلبك عنها ، وإياك أن تهلكك كما أهلكك من كان قبلك ، فقد رأيت مصارعهم ؛ وجاء مع هذا الكتاب كتاب آخر من الخليفة لخالد بأن يسمع من أبي عبيدة ويطيع . إنه لموقف عصب . الحرب دائرة ، والنضال محتم ، والمسلون مع أعدائهم في ساعة فاصلة ، وموت الخليفة

السابق يحدث رجة ، وخلافة الخليفة الجديد تولد أطماعا
وتخيب آمالا ، وعزل القائد المتصرف يغير الوضع ، ويؤثر
في سير القتال أبلغ التأثير ، وتنصيب قائد جديد يتبعه ما يتبعه
من إقبال وإدبار ، وتقديم وتأخير ؛ فإذا يكون العلاج ؟
لو كان أبو عبيدة رجلا صغير النفس ، أو لثيم الطبع ،
أو من عامة الناس ، أو من ضعاف الإيمان ؛ لانتهاز الفرصة
وعزل خالداً ، ونصب نفسه أميراً ، ليكون الفتح باسمه ،
ولينسب الفخار إليه ، وليدير المعركة حسب رأيه ؛ ولكن
الذي كان أن أبا عبيدة كتم الخطاب حتى تمت المعركة ، وكل
النصر للمسلمين ، وهدأت الأمور ، ثم أفضى بحقيقة الأمر إلى
خالد ، فكان ذلك من أبي عبيدة نبلا ومروءة .

وزاد أبو عبيدة في مروءته حين صارع خالداً بأن هذا
التغيير يتناول الشكل ولا يتناول الجوهر ، وأنه لن يقضى أمراً
من الأمور ذوات البال دون أن يرجع إلى رأيه ومشورته ؛
وبذلك هون وقع العزل في نفس خالد ، وأخفى من أثر
التولية في نفسه ، وذلك أسلوب النبلاء .

نفوس الكبار تتبادل الاحترام

سبق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في أبي عبيدة رضوان الله عليه : « لكل أمة أمين ، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح » ، ويروى كذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم طعن في خاعرة أبي عبيدة وقال : « إن هنا خويصرة مؤمنة » .

ويروى أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبي عبيدة ثلاث كلمات لأن يكون قائلها لي أحب إلي من حمر النعم » ، قالوا : وما هن يا خليفة رسول الله ؟ قال : « كنا جلوساً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقام أبو عبيدة ، فتطلع إليه الرسول يبصره ، ثم أقبل علينا فقال : إن هنا لكتفين مؤمتين ، وخرج علينا الرسول ونحن نتحدث فسكتنا ، فظن أننا كنا في شيء كرهنا أن يسمعه ، فسكت ساعة لا يتكلم ثم قال : ما من أصحابي إلا كنت قائلاً فيه لا بد إلا أبا عبيدة .. » وقدم علينا وفد نجران فقالوا : يا محمد ، ابعت لنا من يأخذك الحق ويعطيناه ، فقال : والذي بعثني بالحق لأرسلن معكم القوي الأمين ، قال أبو بكر : فما تعرضت للإمارة غير هذه

المرّة ؛ فرفعت رأسى لأبيه نقي فقال : قم يا أبا عبيدة .
وعن عمر رضى الله عنه أنه قال يوماً لجلسائه : تمنوا
فتمنوا ، فقال : عمر لكفى أتمنى يتأملت رجلاً مثل أبى عبيدة
ابن الجراح ؛ فقال له رجل : ما ألوت الإسلام (أى ما تقصته
حقه) ؛ فقال عمر : ذاك الذى أردت ١ .
وسئلت عائشة رضى الله عنها : من كان أحب إلى رسول
الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالت : أبوبكر ، ثم عمر ، ثم
أبو عبيدة بن الجراح .

وقال عبد الله بن عمر : ثلاثة من قریش ، أصح الناس
وجوهاً ، وأحسنها أحلاماً (عقولاً) ، وأثبتها جناحاً (قلوباً)
إن حدثوك لم يكذبوك ، وإن حدثتهم لم يكذبوك ؛ أبوبكر
الصدیق ، وعثمان بن عفان ، وأبو عبيدة بن الجراح ١ .
هذه شهادات لها أمثالها تشيد بفضل أبى عبيدة ، وترفع
من قدره ؛ وليس ذلك غريباً ؛ فالدرج من يقدره ؛ ولكن
الذى يحسن بنا أن نلاحظه هو تبادل الاحترام والإكبار بين
هؤلاء الكبار ؛ فالأقران فى العادة يتنافسون ، والأمثال
يتزاحمون ، والنظراء يتباغضون ويتحاسدون ؛ ولكن أصحاب
محمد صلى الله عليه وسلم قد تربوا فى مدرسته الإسلامية المصلحة ،
فعرفوا أن أهل الفضل هم الذين يعرفون الفضل لأهله ؛ ولذلك
وأينا أولئك الأئمة الأعلام يتبادلون المحبة والاحترام .

وهذه أخرى

نضيف إلى ما سبق من شهادات ما جاء في صدر الرسالة المنسوبة إلى سيدنا أبي بكر ، والتي ذكر كثير من المؤرخين والأدباء أن أبا بكر أرسلها إلى علي بشأن البيعة عقب أن تولى أبو بكر الخلافة .

وقد اختلف الناس قديماً وحديثاً في أمر هذه الرسالة ؛ ففهم من أكد نسبتها إلى أبي بكر وأفرد لها المؤلفات ، ومنهم من زعم أن فضلاء الشيعة وضعوها ، ومنهم من زعم أن فضلاء السنة وضعوها ؛ ولتحقيق هذا الموضوع مكان آخر ، وليس ذلك من مهمتنا الآن ، وإنما يهمنا الجزء الخاص بأبي عبيدة في صدر الرسالة ؛ وهذا الجزء يبين عن مكانة أبي عبيدة أفضل إبانة ، حتى لو لم تصح نسبة الرسالة كلها إلى أبي بكر ؛ فالرسالة قد وضعت بلا شك منذ قرون ؛ وهذا على التسليم بوضعها ؛ وكاتبها - إن لم يكن قائلها أبا بكر - قد وصف أبا عبيدة فأجاد الوصف ، وأشاد به فأحسن الإشادة .

تقول الرسالة إن أبا بكر أرسل أبا عبيدة إلى علي رضي الله عنه ، حينما تأخر في مبايعة أبي بكر ، ليحادثه في هذا الأمر ؛ وقال أبو بكر لأبي عبيدة أول ما قال :

يا أبا عبيدة .. ما أئمن ناصيتك ، وأئمن الخير في
عينيكَ ، وطالما أعز الله بك الإسلام ، وأصلح شأنه على
يديكَ ، ولقد كنت من رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمكان
المحوط ، والمحل المغبوط ؛ ولقد قال فيكَ في يوم مشهود :
لكل أمة أمين ، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة ؛ ولم تزل للدين
ملتجأ ، وللمؤمنين مرتجى ، ولأهلك ركناً ، ولإخوانك
ردماً .. قد أردتكَ لأمر خطر مخوف وإصلاحه من أعظم
المعروف ؛ ولئن لم يندمل جرحه بيسارك (١) ورفقك ، ولم تجب (٢)
حيته برقيتك ، فقد وقع اليأس ، وأعطل البأس ، واحتيج
بعد ذلك إلى ما هو أمر منه وأعلق ، وأعر منه وأغلق ؛
والله أسأل تمامه بك ، ونظامه على يديكَ ؛ فتأت له يا أبا
عبيدة ، وتلطّف له ، وأنصح لله عز وجل ، ولرسوله صلى
الله عليه وسلم ، ولهذه العصاة ، غير آل جهداً ، ولا قال
حمداً ؛ والله كاللّك وتناصرك ، وهاديك ومبصرك إن شاء
الله

(١) في روايه بيسارك ، والمساير فتيل بدخل في المرح ليصرف كم عمقه ،
يقال : سبرت المرح إذا اخترت به الممار ، وقوله : بيسارك هنام مناه بيسرك
ولينك .

(٢) تقطع .

وأمل أبو بكر على أبي عبيدة ما أمل ؛ ثم مشى أبو عبيدة
السفير الحكيم المخلص بما حل ... وهنا يقول ما يكشف عن نفسه
المشفقة ، وروحه المؤمنة ، الحريصة على الوحدة والالتزام :
« فشيت متزملأ (١) كأنما أخطو على أم رأسى ، فرقا من
الفرقة ، وشفقاً على الأمة ، حتى وصلت إلى على رضى الله
عنه فى خلاء ؛ فأبثته بئى كله ، وبرنت إليه منه ؛
ورفقت به ... » .

وهذا القول يدل على حكمة أبي عبيدة ، وتقديره للأمور ،
ويصور نفسه الطاهرة ، ومقصده النبيل .

حيلة أبي عبيدة

كتب أبو عبيدة — وهو أمير على الشام — إلى الخليفة عمر ابن الخطاب يذكر له أن نفراً من المسلمين عنده أصابوا الشراب وهو الخمر ، ومنهم أبو جندل بن سهل ، ويقول لعمر : إننا سألناهم فقالوا : خيرنا فاخترنا ، يقصدون قول الله تعالى في سورة المائدة بشأن الخمر : « فهل أتمّ منتهون ، ؟ فإنه — كما زعموا — لم يرم ولم يوجب الانتهاء .

فجمع عمر الناس واستشارهم ، فأجمعوا على خلافهم ، وقالوا إن المعنى : « فهل أتمّ منتهون ، أى انتهوا ؛ وأجمعوا على جلدهم ثمانين ثمانين ؛ وأن من تأول هذا التأويل وأصر عليه يقتل .

فكتب عمر إلى أبي عبيدة أن ادعهم فسلمهم عن الخمر ، فإن قالوا هي حلال فاقتلهم ، وإن قالوا هي حرام فاجلدوهم ؛ فاعترف القوم حين سألهم أبو عبيدة بتحريمها ؛ فجلدوا الحد ، وندموا على ما كان منهم من اللجاجة فيما تأولوه ، حتى وسوس أبو جندل في نفسه — لأنه كبر عليه إثمهم — فكتب أبو عبيدة في ذلك إلى عمر ، وسأله أن يكتب إلى أبي جندل ويذكره ؛ فكتب إليه عمر في ذلك يقول : « من عمر إلى أبي جندل

إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ،
 قتب وارفع رأسك ، وابرز ولا تقنط ؛ فإن الله تعالى يقول :
 (قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة
 الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً ، إنه هو الغفور الرحيم) ؛
 وكتب عمر إلى الناس يقول : « إن عليكم أنفسكم ، ومن
 غير فخيروا عليه ، ولا تميروا أحداً فيفشو البلاء » . ١ .
 لقد أحسن عمر التصرف في هذا الموقف من غير شك ،
 لأن الآية الكريمة تقول : « إنما الخمر والميسر والأنصاب
 والأزلام رجس من عمل الشيطان » ، والرجس هو القذر
 والتنن ؛ وعمل الشيطان ضلال بلا جدال ؛ ثم تقول بعد
 ذلك : « فاجتنبوه لعلكم تفلحون » ؛ فأمرت بالابتعاد ،
 وعنقت الفلاح على ذلك الابتعاد ؛ ثم يقول القرآن بمصدر
 ذلك : « إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء
 في الخمر والميسر ، ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة . قبل
 أتم منتهون ؟ » ؛ فأبان أن الشيطان يريد من إتيان هذه
 الأمور إيقاع العداوة والبغضاء والصد عن ذكر الله والصلاة ،
 فكيف يكون الانتهاء بعد هذا اختيارياً أو مندوباً ؟ . كيف
 والقرآن يقول عقيب ذلك : « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول
 واحذروا » ، فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين ؟ . ..
 قبل بعد قوله : « واحذروا » وقوله : « فإن توليتم فإنما على
 رسولنا البلاغ المبين » ، يكون هناك مجال لذلك التأويل لمحال ؟ . ..

وأحسن عمر لأنه كتب إلى أبي جندل يذكره برحة الله ،
ويفتح أمامه أبواب الأمل والرجاء ، وحسن الظن بالله ؛
لأنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون .
وأحسن عمر حين أمر الناس بالانصراف إلى إصلاح
نفوسهم ؛ فطوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس ؛ وحين
نهاهم عن التعيير بالمعصية ؛ فإن ذلك من أوسع أبواب البلاء .
ولكننا بعد ملاحظتنا لإحسان عمر في هذا كله يجب
علينا أيضاً أن نلاحظ ما أحسن فيه أبو عبيدة ؛ فأبو عبيدة
هنا والى وحاكم وأمير ؛ وقد أتى إليه يقوم ارتكبوا كبيرة
من الكبائر ، وهى شرب الخمر ؛ وهذه الكبيرة تحتاج إلى
حد مؤدب ومهذب ، فلما هم به تأول مرتكبو الجريمة ؛
فاذا كان من أبي عبيدة ؟.. توقف وتلبث ، شأن الحاكم العادل
الذى يريد أن يسير في أحكامه على بصيرة ويقين ، ويتذكر
أن الحدود تدرأ بالشبهات — إن صحت الشبهة هنا — وكتب
إلى الخليفة يستفتيه في الأمر ؛ فهو صاحب الأمر الأول في
الامة ، ومن حوله أهل المشورة والفتيا ؛ وهذا من غير
شك احتياط محمود من أبي عبيدة لا يغييه إلا عجول مسرف ،
أو جاهل متعسف ؛ وهو أيضاً تقدير جميل من أبي عبيدة
لمكاتبة عمر الخليفة ؛ وهو ثالثاً احترام من أبي عبيدة لحرية

الرأى والتفكير ؛ فالظاهر أن أبا عبيدة لم يكن على رأى الذين شربوا وتناولوا ؛ وإلا لقبل منهم وأطلق سراحهم ؛ ومع هذا لم يأخذ برأيه متسرعاً حينما وجد رأياً لغيره .. ومن ذلك الغير ؟ .. إنه منهم يجب أن يظل بمنجاة من العقاب حتى ينهض عليه الدليل بدون التباس .. وقد رد عمر ، وأزاء لشبهة ؛ فلم يبق إلا إقامة الحد الذى فرضه الله ؛ وقد كان ؛ وانقطع التأويل والجدال .

وأحسن أبو عبيدة غاية الإحسان حينما ثارت فى صدره تلك العاطفة النبيلة بشأن أبي جندل .. لقد آلمه أن يحزن أبو جندل ذلك الحزن ، وأن تثور فى أفقه غيوم اليأس والقنوط ؛ وعز على أبي عبيدة أن ينأى مسلم عن حمى الرحمة والاهتداء ؛ فإذا به يحرص على هدايته وراحته ؛ وإذا به يكتب إلى الخليفة يرجوه أن يعجل بنصيحة لأبي جندل تعيده إلى صوابه ، وتضىء أمامه الطريق ؛ وقد كان ...

وهذه غاية ما يلتزمه منصف من راع يحرص على خير رعيته ، ويجب النعمة لإخوته فى الإسلام .

ولم لا نقول : د وأحسن أبو جندل أيضاً ، ؟ .. وإن يكن قد أسرف على نفسه قليلاً .. لقد أخطأ متأولاً فشرب الخمر ؛ ثم أقیم عليه الحد فطهره ؛ ولكن الذنب تعاضمه وأحاط

بعد أن سمع من حكم الإسلام وتفسير الآية ما سمع .
 ولذلك استشعر المزيد من الخوف ؛ فزلزل واضطرب ،
 واشتد به الحزن فززم بيته ، وغالى حين وسوس ، واحتاج
 إلى من يذكره بغفوا الله ورحمته ؛ وقد كان .
 جاء كتاب عمر فقراه أبو عبيدة على أبي جندل ؛ فتطلق
 وأسفر وجهه ، وكأنما نشط من عقال ؛ فبرز من بيته ،
 وعاد إلى سابق عهده ؛ واستقام على الطريق ، وكتب
 أبو عبيدة صورا من كتاب الخليفة إلى الآخرين شركاء أبي
 جندل ، فبرزوا مثله .

سلام على عمر .. وسلام على أبي عبيدة .. وسلام أيضاً
 على أبي جندل .. وسلام على من اتبع الهدى .

أبو عبيدة في كلامه

الكلام سواء أكان حديثاً أم كتابة صورة من نفس صاحبه ؛
ولقد تقدم من أنباء أبي عبيدة ما فيه مقنع وبرهان أى برهان
على أنه كان بطلا عظيماً ، وعبقرياً موهوباً ، ومؤمناً صادقاً ،
ومتسكاً بمكارم الأخلاق .

وقد يكون من الخير أن نرى أبا عبيدة من خلال كلامه ؛
لنشهد من هذا الكلام صورة أخرى لنفسه الصافية ، وإيمانه
الصادق ، وبلائه المتين .. وسندكر كل كلمة أو رسالة كتبها
أبو عبيدة مع مناسبتها في إيجاز ؛ فيكون ذلك استكمالاً للترجمة ،
ومتابعة لصحبة الرجل العظيم ، وتأكيذاً لما سبق من تحليل
لو تصوير .

في قتال الروم

سار أبو عبيدة بجيشه إلى الشام ؛ فلما قرب من الجابية ،
 جاءه من أنباء أن « هرقل ، ملك الروم موجود في أنطاكية »
 وأنه قد جمع لحرب المسلمين جموعاً هائلة لم يجمعها أحد من
 آبائه قبله لأحد من الأمم السابقة ؛ فرأى أبو عبيدة — مع أنه
 قائد وأمير للجيش وقريب من الميدان — أن يكتب إلى
 أمير المؤمنين أبي بكر يستشير ، ويطلب منه رأيه ؛ ولعل
 ذلك لم يكن عن عجز من أبي عبيدة ، أو قصور عن التدبير ؛
 وإنما هو يريد أن يحفظ لأبي بكر حقه ، وأن يستعين برأيه ؛
 وما ندم من استشار ؛ فأرسل أبو عبيدة إليه الرسالة التالية :

« بسم الله الرحمن الرحيم .. لعبد الله أبي بكر ؛ خليفة
 رسول الله صلى الله عليه وسلم من أبي عبيدة بن الجراح ..
 سلام عليك .. فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ؛
 أما بعد ... فإننا نسأل الله أن يعز الإسلام وأهله عزاً متيناً ،
 وأن يفتح لهم فتحاً يسيراً .. فإنه بلغني أن « هرقل ، ملك
 الروم ، نزل قرية من قرى الشام تدعى « أنطاكية » ، وأنه
 بعث إلى أهل مملكته فحشروهم إليه ، وأنهم تفرروا إليه على

الصعب والذلول (١) ، وقد رأيت أن أعليك ذلك ، فترى فيه
 وأيك ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

الرسالة كما ترى وجيزة لا تتجاوز السطور المحدودة ، وهي
 واضحة لا تكلف فيها ولا تعمل ، ولا صنعة بها ولا إغراب ،
 وكذلك شأن أبي عبيدة فيما قرأ من كتبه ورسائله ، وهي
 تهدف إلى المقصود من أقرب طريق ، فتخير بالخبر ، دون
 خلل أو تطويل ، ثم تطلب الرأي ...

وفي الرسالة أدب نفس .. فأبو عبيدة يقدم ذكر أبي بكر
 في الرسالة على ذكر نفسه ، مع جريان العادة بغير هذا عند
 الكثيرين يومئذ ، وهذا توقيف منه لأبي بكر ، ولكنه في الوقت
 نفسه لا يتملق أبا بكر ، ولا يسبغ عليه حلل المديح والثناء
 فضفاضة ، وإن استحقا أبو بكر بلا جدال ، ويكتفى أبو عبيدة
 في وصف أبي بكر بقوله : « عبد الله » وقوله : « خليفة
 رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

وقد بلغت الرسالة أبا بكر ، وأجاب عليها بوضوح وجملة
 ونصيحة بالغة ، قال :

« بسم الله الرحمن الرحيم .. أما بعد ... فقد بلغني كتابك

١ في أساس البلاغة للزمخشري : « ومن المجاز : ركبوا كل صيب وظلوله
 في أمرهم إذا بذلوا فيه الطاقة » .

خوفيت ما ذكرت فيه من أمر (هرقل) ملك الروم ؛ فأما منزله بأنطاكية فهزيمة له ولأصحابه ، وفتح من الله عليك وعلى المسلمين ؛ وأما ما ذكرت من حشره لكم أهل مملكته ، وجمعه لكم الجموع ؛ فإن ذلك ما قد كنا وكنتم تعلمون أنه سيكون منهم ؛ وما كان لقوم ليدعوا سلطانهم ، ولا يخرجوا من ملكهم بغير قتال ، وقد علمت — والحمد لله — أن قد غزام رجال كثير من المسلمين يحبون الموت حب عدوهم الحياة ، ويجزون من الله في قتالهم الأجر العظيم ، ويجبون الجهاد في سبيل الله أشد من حبهم أبكار نساءهم وعقائل أموالهم (١) ، الرجل منهم عند الفتح خير من ألف رجل من المشركين ؛ فالقهم بجندى ، ولا تستوحش لمن غاب عنك من المسلمين ؛ فإن الله معك ، وأنا مع ذلك بمدك بالرجال حتى تكفى ولا تريد أن تزداد إن شاء الله ، والسلام عليك ورحمة الله .

وتجمع أهل مدائن الشام بعد أن ترأسوا ، وكذلك أرسلوا إلى كل من كان على دينهم من العرب ليقاتلوا معهم فأجابوا ،

١ أى خباؤها . المفرد عقيقة ، وهى من كل شئ . أى كرمه . ويقال فلانة عقيقة قومها ، أى سيبتهم وذات المساء . فيهم ، ويقال للمرأة : عقيقة البحر ، لأن ابن الوهبان :

وخرج الجميع إلى قتال المسلمين بعد أن قال لهم ملك الروم
إن أهل مدينة واحدة من مدائنكم أكثر مما جاءكم من العرب
أضعافا مضاعفة .

فكتب أبو عبيدة رسالة ثانية إلى أبي بكر يقول فيها :
بسم الله الرحمن الرحيم ؛ أما بعد .. فالحمد لله الذي
أعزنا بالإسلام ، وأكرمنا بالإيمان ، وهداانا لما اختلفه
المختلفون فيه بإذنه ، إنه يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ؛
وإن عيون من أنباط (١) أهل الشام أخبروني أن أوائل أمداد
ملك الروم قد وقعوا إليه ، وأن أهل مدائن الشام بعثوا
وسلمهم إليه يستمدونه ، وأنه كتب إليهم : (إن أهل مدينة
من مدائنكم أكثر من قدم عليكم من العرب ، فانهضوا إليهم
فقاتلوهم ، فإن مددى يأتيكم من ورائكم) ؛ فهذا ما بلغناه
عنهم ، وأنفس المسلمين لينة بقتالهم (٢) . وقد أخبرونا أنهم
تهيأوا لقتالنا ، فأنزل الله على المؤمنين نصره ، وعلى المشركين
رجزه ، إنه بما يعملون عليم ، والسلام .
وقد رد عليه أبو بكر بخطاب يستنهض فيه إلى حصار

١ في القاموس أن النبط جيسل ينزلون بالبطائح بين المراقين كالنبط
والأنباط .

٢ أى يحب المسلمون قتالهم .

لأعداء ، وبث الخيل في القرى والسواد (١) ، وقطع الميرة (٢) والماء عن أهل المدائن .

وروى كذلك أن أبا عبيدة كتب إليه يقول :

« بسم الله الرحمن الرحيم ؛ أما بعد .. فإن الروم وأهل البلد ومن كان على دينهم من العرب ؛ قد اجتمعوا على حرب المسلمين ؛ ونحن نرجو النصر ، وإنجاز موعود الرب وعادته الحسنى ؛ أحببت إعلامك ذلك لترى فيه رأيتك إن شاء الله ؛ والسلام » .

١ سواد البلدة تراها ، والسواد أيضاً رستان العراق ، وموضع قرب البلقاء .

٢ الميرة جلب الطعام ، والميار جالب للميرة .

وعظ للخليفة عمر

لقد عزل عمر — بمجرد توليه الخلافة — خالداً ، وولى أبا عبيدة ؛ وكان المنتظر في شرعة العامة من الناس أن يسارع أبو عبيدة فيكتب إلى عمر شاكراً حامداً ، وأن يطيل فيه الثناء ، وأن يظهر بما استطاع من وسائل أن هذه التولية منة من عمر عليه ؛ ولكن ما حدث كان غير هذا ؛ وكان الواجب كل الواجب في شرعة المؤمنين أن يحدث غير هذا ؛ إذ ليست هنا منة أو صنعة ، وليس هنا استثناء أو محابة ، وليست هذه التولية غنا ، وإنما هي غرم ، وليست شهوات ولكنها تبعات .

ولذلك نرى أبا عبيدة يكتب عقيب تولى عمر للخلافة رسالة يشترك معه فيها معاذ بن جبل رضى الله عنه — وكان مع أبي عبيدة في الشام — ينصحان فيها عمر الخليفة الجديد بأسلوب واضح ، وتحذير جلي (١) ؛ فيقولان له :

« بسم الله الرحمن الرحيم .. من أبي عبيدة بن الجراح ، ومعاذ بن جبل ؛ إلى عمر بن الخطاب ؛ سلام عليك .. فإذا

١ رغم هذا كان أبو عبيدة يحمل عمر ، جاء في العقد الفريد : « ومن حديث وكيع عن شفيان قال : قبل أبو عبيدة يد عمر بن الخطاب » ج ٢ ص ٦٠ .

تحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ؛ أما بعد .. فإننا عهدناك وأمر نفسك لك مهم ؛ وإنك يا عمر أصبحت وقد وليت أمر أمة محمد : أحمرها وأسودها ؛ يقعد بين يديك الصديق والعدو ، والشريف والوضيع ، والشديد والضعيف ، ولكل عليك حق وحصة من العدل ؛ فانظر كيف أنت يا عمر عند ذلك ، وإنا نذكرك يوماً تبلى فيه السرائر ، وتجب فيه (١) القلوب ، وتكشف فيه العورات ، وتظهر فيه الخبائآت ، وتغنو (٢) فيه الوجوه لملك قاهر ، قهرهم بجبروته ، والناس له داخرون ، ينتظرون قضاءه . ويخافون عقابه ، ويرجون رحمته .

وإنه بلغنا أنه يكون في هذه الأمة رجال يكونون إخوان العلانية أعداء السريرة ؛ وإنا نعوذ بالله أن تنزل كتابنا من قلبك سوى المنزل الذي نزل من قلوبنا ؛ فإننا إنما كتبنا إليك نصيحة لك . والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .
فاذا كان جواب عمر ؟ .

إن هذا كتاب من جنديين من جنود الإسلام ؛ وهما من الرعية مهابا علا قدرهما ، وقد وجهاه إلى الرجل الأول في

١ تضارب
٢ تغنو: تذل وتضعف ، وفي التنزيل : • ومنت الوجوه على القيوم وقد
خاب من حمل ظمأ •

الامة الإسلامية ، وهو خليفة خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمير المؤمنين ، وعمر الفاروق ، الذى أعز الله به الإسلام ، والذى شهد له الرسول صلى الله عليه وسلم بأن الحق معه ، وبأن الشيطان يفر منه ، وبأنه ملهم فى أمته ؛ فهل تكبر أو غضب ، حينما جاءه الكتاب من أبى عبيدة ومعاذ ؟ .. كلا والله لم يفعل ؛ وغير عمر هو الذى يتكبر أو يأنف من النصيحة تأتية من أى إنسان ، فكيف بها من عليين من أعلام الإسلام ؟ ..

لقد كان جواب عمر أن كتب إليهما يقول :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى أبى عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل . سلام عليك . فإني أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو . أما بعد ، فإني أوصيك بتقوى الله ، فإنه رضا ربك ، وحظ نفسك ، وغنيمة الأكياس^(١) لا تقسم عند تفريط العجزة ؛ وقد بلغت كتابك تذكران أنكما عهدتماي وأمرتني لى مهم ، فإني يدريكم ؟ وهذه تزكية منكما لى ، وتذكران أنى وليت أمر هذه الأمة ،

(١) الكيس العقل وخلاف الحق ، والرجل أكيس ، والجمع أكياس وكيسى ، قال الشاعر :

فكن أكيس الكيسى إذا كنت فيهم وإن كنت فى الخفى فكن مثل أحمق

يقعد بين يدي الصديق والعدو ، والشريف والوضيع ،
والقوى والضعيف ، ولكل حصته من العدل ؛ وكتبتما أن
انظر كيف أنت يا عمر عند ذلك ؛ وإنه لا حول ولا قوة
لعمر عند ذلك إلا بالله ؛ وكتبتما تحفظاني يوماً هو آت ؛
وذلك باختلاف الليل والنهار فإنهما يلبيان كل جديد ،
ويقربان كل بعيد . ويأتيان بكل موعود ، حتى يأتيا بيوم
القيامة ، يوم تبلى فيه السرائر ، وتكشف العورات ، وتغنو
فيه أوجوه لعزة ملك قهرهم بجبروته ؛ فالتاس له داخرون (١)
يخافون عقابه ، وينتظرون قضاءه ، ويرجون رحمته ؛ وذكرتما
أنه ينبغي أن يكون في هذه الامة رجال ، يكونون إخوان
العلائية ، أعداء السرية ، فليس هذا بزمان ذلك ، إنما ذلك
في آخر الزمان إذا كانت الرغبة والرغبة ؛ فتكون رغبة بعض
الناس إلى بعض لإصلاح دينهم ، ورغبة بعض الناس لإصلاح
دنياهم ، وما سلطان الدنيا وإمارتها ؟.. فإن كل ما تريان
يصير إلى زوال ، وإنما نحن إخوان ؛ فأينا أم أخاه أو كان
أميراً عليه لم يضره ذلك في دينه ولادنياه ، بل لعل الولي

(١) دخر دخورا : صفر وذو القعدة والقرآن المجيد « إن الذين يدسكبرون

عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين » .

يكون أقربهما إلى الفتنة ، وأوقعهما بالخطيئة ، لأنه معرض
 هلكة ، إلا من عصم الله عز وجل ، وقليل ما هم ؛ وكتبتم
 تعوذاتي بالله أن أنزل كتابكم منى سوى المنزل الذي نزل من
 قلوبكم ، وإنما كتبتم نصيحة لي ، وقد صدقتم ؛ فتمهداني
 منكما بكتاب ، ولا غنى بي عنكما .

فى موقعة « فحل » ،

وتجمع الروم فى بلدة « فحل » ، وتعاهدوا على طرد العرب المسلمين مهما كلفهم ذلك من تضحيات ، وكتب الروم إلى المسلمين يطلبون منهم الرحيل عن بلادهم المثمرة ، إلى صحرائهم المقفرة ؛ فكتب أبو عبيدة فى ذلك الأمر كتاباً إلى الخليفة عمر : وفى هذا الكتاب ترى أبا عبيدة صريحاً وانحاً كعادته ؛ ولكنه قوى صارم كذلك : فهو يستعرض دعاوى القوم ، ويرد عليها ، وهو يبدى رأيه فى الموقف وانحاً جلياً ، ثم يرجو أن يؤيده الخليفة أو يوافقّه عليه ؛ يقول أبو عبيدة :

« بسم الله الرحمن الرحيم . لعبد الله عمر أمير المؤمنين من أبى عبيدة بن الجراح . سلام عليك ؛ فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد . . فإن الروم قد أقبلت ، فزلت « فحل » ، طائفة منهم مع أهلها ، وقد سارع إليهم أهل البلد ، ومن كان على دينهم من العرب ، وقد أرسلوا إلى أن (اخرج من بلادنا التى تنبت الخنطة والشعير والفواكه والاعناب ، وإنكم لستم لها بأهل ، والحقوا ببلادكم ، بلاد الشقاء والبؤس ؛ فإن أتم لم تفعلوا سرنا إليكم بما لا قبل لكم

به ، ثم أعطينا الله عهداً أن لا ننصرف عنكم ، ومنكم عين
 قطرف) .. فأرسلت إليهم : أما قولكم : اخرجوا من
 بلادنا فلستم لها بأهل ، .. فلعمري ما كنا لنخرج منها وقد
 دخلناها وورثناها الله منكم ، ونزعناها من أيديكم ؛ وإنما
 البلاد بلاد الله ، والعباد عباده ، وهو ملك الملوك ، يؤتي
 الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، ويعز من يشاء ،
 ويذل من يشاء .

وأما ما ذكرتم من بلادنا ، وزعمتم أنها بلاد البؤس
 والشقاء ؛ فقد صدقتم ؛ وقد أبدانا الله بها بلادكم بلاد العيش
 الرقيق (١) ، والسعر الرخيص ، والفواكه الكثيرة ؛ فلا
 تحسبونا بتاركها ، ولا منصرفين عنها ؛ ولكن أقيموا لنا ؛
 فوالله لا نجشمكم إتياننا ، ولأننا نعلم إن أقمتم لنا .. فكتب
 إليك حين نهضت إليهم ، متوكلاً على الله ، راضياً بقضاء الله ،
 واثقاً بنصر الله . كفانا الله وإياك والمؤمنين مكيدة كل كائد ،
 وحسد كل حاسد ، ونصر الله أهل دينه نصراً عزيزاً ، وفتح
 لهم فتحاً يسيراً ، وجعل لهم من لدنه سلطاناً نصيراً ،
 وقد رد عليه عمر ، يصفه بالسداد والرشاد . ويوصيه

(١) الرقيق : الواسع الخفيف .

بالثبات والصبر ، ويبشره بالفتح والنصر .

ونهض المسلمون لقتال الروم ؛ فهزمهم شر هزيمة ، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وتغلبوا على سواد الأردن ، وعلى أرضها ؛ وكتب أبو عبيدة إلى عمر كتاباً يفيض تحدياً بنعمة الله سبحانه ، واعتزازاً بفضله ، وإسناداً للفوز إلى عنايته ورعايته ، ويخبر أبو عبيدة الخليفة بالانتصار ؛ فلا ينسب من ذلك شيئاً إلى نفسه أو إلى جيشه ؛ ولكن إلى الله وحده ؛ ثم يشير إلى الشهداء الذين أهدى ، الله إليهم نعمة الشهادة .. وما أجمل التعبير هنا عن الشهادة بكلمتي « أهدى » و « نعمة » .. ثم يصف اندحار المشركين وانكسارهم ، ويحسن الاقتباس من القرآن الكريم في هذا الموطن ، ويجري في الكتاب على أسلوب عاداته من السهولة والوضوح ، والسلاسة ، والاختصار ، فيقول في الكتاب :

« بسم الله الرحمن الرحيم ؛ لعبد الله عمر أمير المؤمنين من أبي عبيدة بن الجراح ؛ سلام عليك ؛ فإنني أحد إليك الله الذي لا إله إلا هو ؛ أما بعد .. فالحمد لله الذي أنزل على المسلمين المؤمنين نصره ، وعلى الكافرين رجزه ؛ أخبر أمير المؤمنين — أصلحه الله — أنا التقينا نحن والروم ؛ وقد جمعوا لنا الجموع العظام ؛ فجاءونا من رموس الجبال ،

وأسياف (١) البحار ، وضمنوا أنه لا غالب لهم من الناس ؛
فبرزوا ، وبغوا علينا ، وتوكلنا على الله ، ورفضنا رغبتنا
إليه ، وقلنا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، ونهضنا إليهم بخيلنا
ورجلنا ؛ وكان القتال بين الفريقين ملياً (٢) من النهار . أهدى الله
فيه نعمة الشهادة لرجال من المسلمين ؛ منهم عمرو بن سعيد بن العاص ،
وضرب الله وجوه المشركين ، واتبعهم المسلمون يقتلونهم
ويأسرونهم ، حتى اعتصموا بحصونهم ؛ فأصاب المسلمون
عسكرهم ، وغلبوا على بلدهم ، وأنزلهم الله من صياصيمهم (٣) ،
وقذف في قلوبهم الرعب ؛ فاحمد الله يا أمير المؤمنين أنت
ومن قبلك من المسلمين على إعزاز دينه ، وإظهار الفلج (٤)
على المشركين ، وادعوا الله لنا بتمام النعمة ؛ والسلام عليك .
ولما رأى الكافرون المهزومون من أهل دغل ، أن
المسلمين قد غلبوا كذلك على أرض الأردن سألوهم الصلح ،
فصالحهم المسلمون بلا خلاف ؛ وأما أهل الأردن وأهل القرى
الأخرى فلم يستجب لهم المسلمون بمثل ما استجابوا لأهل دغل ،

(١) أسياف : سواحل .

(٢) ملياً : زمناً طويلاً .

(٣) صياصيمهم : حصونهم .

(٤) الفلج : الانتصار .

لأن هذه البلاد قد أخذها المسلمون عنوة بغير صلح ؛ ولذلك
اختلف المسلمون فيما بينهم حول مصير هذه البلاد ؛ فقالت
طائفة منهم : نقتسمهم ، وقالت طائفة أخرى : نتركهم ،
وأراد أبو عبيدة — كعادته السمحة المحتاطة — أن يستشير
عمر قبل الإقدام على تنفيذ أحد الرأيين ؛ فكتب إليه
الكتاب الوجيز التالي :

« بسم الله الرحمن الرحيم ؛ أما بعد .. فإن الله ذا المن
والفضل والنعم العظام ، فتح على المسلمين من أرض الروم ؛
فأنت طائفة من المسلمين أن يقرؤا أهلها على أن يؤدوا
الجزية إليهم ، ويكونوا عمار الأرض ، وأنت طائفة منهم
أن يقتسموهم ؛ فليكتب إلينا أمير المؤمنين برأيه في ذلك ،
أدام الله لك التوفيق في جميع الأمور ، .

فرد عليه عمر يهته بالنصر ، ويذكر الشهداء بالخير ،
ويطلب إلى أبي عبيدة أن يقر أهل الأرض ، وأن يحمل
الجزية عليهم ، ويقسمها بين المسلمين ، ويكون هؤلاء عمار
الأرض ؛ فهم أعلم بها ، وأقوى عليها من غيرهم ... فلما
جاء أبا عبيدة هذا الرأي من عمر عمل به .

عهد أبي عبيدة لأهل بعلبك

بعد أن انتهى أبو عبيدة من أمر دخل ، وسواد الأردن
والقرى المجاورة ؛ اتجه نحو حص ، ومر بمدينة بعلبك ،
فطلب أهلها منه الأمان والصلح ؛ فاستجاب لهم ، وكتب
عهداً يعتبر نموذجاً من نماذج العدالة الإسلامية ، والسماحة التي
ظهر بها المسلمون في فتوحهم وحروبهم ؛ فهذا أبو عبيدة يمر
ظافراً منتصراً ، وللظفر نشوة ، وللاتنصار سكرة ؛ وهذه
« بعلبك » تطلب إليه الأمان والصلح ، وهو قادر على فتحها
عنوة والبطش بها ؛ ولكنه يستجيب لدعوة السلام ، وطلب
الأمان ، ويكتب لأهل بعلبك ، عهداً قصير السطور ؛ ولكنه
جليل التأثير ، ففيه التعهد بإعطاء الحرية في العبادة والتنقل ،
وفيه ترغيب في الإسلام ؛ فإن أسلم القوم فالإسلام يتطوع ما قبله
والمسلمون سواء ؛ وها هو ذا العهد :

« بسم الله الرحمن الرحيم .. هذا كتاب أمان لفلان بن
فلان وأهل بعلبك ، رومها وفرنسا وعربها ؛ على أنفسهم ،
وأموالهم ، وكنائسهم ، ودورهم ، داخل المدينة وخارجها ،
وعلى أربائهم ؛ ولروم أن يرعوا سرحهم ، ما بينهم وبين

خمسة عشر ميلا ، ولا ينزلوا قرية عامرة ؛ فإذا مضى شهر ربيع وجمادى الاولى ، ساروا إلى حيث شاءوا ، ومن أسلم منهم فله ما لنا وعليه ما علينا ، ولتجارهم أن يسافروا إلى أحيث رادوا من البلاد التي صالحنا عليها ، وعلى من أقام منهم الجزية والخراج ؛ شهد الله ، وكفى بالله شهيداً .

مع أهل حمص

ودخل أبو عبيدة بلدة حمص ، ، وطلب أهلها كذلك الصلح ؛ فصالحهم المسلمون ، وكتبوا لهم كتاباً كالكتاب السابق بالأمان على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم ؛ وكتبه أبو عبيدة إلى أمير المؤمنين عمر يخبره بذلك ، ويهينه بما ساق الله في فتح حمص وصلحها من الخيرات والخراج ؛ وهو كدأبه سهل التعبير ، واضح التراكيب ، مكشوف القصد ، منحوت من التهجم على شيء قبل الاستشارة ، ناسب الفضل في القوة والغلبة إلى الله ؛ وفي ذلك الكتاب يقول :

بسم الله الرحمن الرحيم ؛ لعبد الله عمر أمير المؤمنين من أبي عبيدة الجراح ؛ سلام عليك ؛ فإنني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد .. فالحمد لله الذي أفاء علينا وعليك يا أمير المؤمنين أفضل كور في الشام أهلاً وقلاعاً ، وأكثرهم عدداً وجمعاً وخراجاً ، وأكتبهم للمشركين كتباً (١) ، وأيسره على المسلمين فتحاً ؛ أخبرك يا أمير المؤمنين — أصلحك الله — أنا قدمنا بلاد حمص ، وبها من المشركين عدد كثير ؛ والمسلمون

(١) الكتب كنس : الجمع ، أي أكثرهم جمعاً .

يزفونهم (١) يأس شديد ؛ فلما دخلنا بلادهم ألقى الله الرعب في قلوبهم ، ووهن كيدهم ، وقلم أظفارهم ، وسألوا الصلح ، وأذعنوا بأداء الجزية ؛ فقبلنا ، وكففتنا عنهم ، وفتحوا لنا الحصون ، واكتتبوا منا الأمان ؛ وقد وجهنا الخيول إلى الناحية التي فيها ملكهم وجنوده ؛ فنسأل الله ملك؟ الملوك ، حواصر الجنود ، أن يعز المسلمين بنصره ، وأن يسلم المشرك الحاطىء بذنبه ؛ والسلام عليك .

وقد سر عمر بهذا التوفيق ؛ ولكن يظهر أنه خشى من توسع المسلمين السريع في الفتح ، وتعجل أبي عبيدة في بث الجنود في الجهات المختلفة ؛ فكتب عمر ينصح أبا عبيدة بجمع الجيش ، والإقامة به مضموماً حتى يمضى هذا الحول ، ويكتب له بعد ذلك بما يرى ..

وكان أبو عبيدة رضى الله عنه قد بعث ميسرة بن مسروق في جماعة من الجند إلى ناحية حلب ؛ فلما جاءه خطاب الخليفة أسرع باستدعاء ميسرة ، إذ بعث إليه خطاباً كأنه برقية من إيجازه وبلاغته ؛ وفيه يقول :

د أما بعد .. فإذا لقيك رسولى فأقبل معه ، ودع

ما كنت وجهتك فيه ، حتى نرى من رأينا ، وننظر ما يأمر به خليفتنا ، والسلام عليك .

فلم يتعصب أبو عبيدة هنا لرأيه ، ولم يقل : تصرف قد أبرمته فكيف أنقضه ، وأمر بدء بتنفيذه فكيف أعطاه ؟ .. بل سمع وأطاع ؛ لأنه لا ينظر إلى شخصه ، ولكنه ينظر إلى اجتماع الكلمة ، وطاعة الخليفة ، ومصلحة الدعوة .

فأقبل مسيرة في أصحابه حتى انتهى إلى أبي عبيدة في حمص فزال معه .

بين حصص ودمشق

يظهر أن الروم عند دمشق تجمعوا مرة أخرى لحرب المسلمين ، وخرجوا على النظام الذي استقر منذ حين ، ويظهر أن أبا عبيدة رضى الله عنه كان بارعا في بث الميون والأرصاء ، والتقاط الأنباء والأخبار في مواقيتها ؛ فلما علم بما كان ؛ بعث ليلة غدا من حصص إلى دمشق سفيان بن عوف بن معقل رسولاً إلى عمر رضى الله عنه ، وكتب معه الكتاب التالى :

« أما بعد فإن عيونى قدمت على من أرض عدونا ، من القرية التى فيها ملك الروم ؛ فحدثونى بأن الروم قد توجهوا إلينا ، وجعوا انا من الجوع ما لم يجمعوه لامة قط كانت قبلنا ؛ وقد دعوت المسلمين وأخبرتكم الخبر ، واستشرتهم فى الرأى ؛ فأجمع رأيهم على أن يتنحوا عنهم حتى يأتينا رأيك ؛ وقد بعثت إليك رجلا عنده علم ما قبلنا ؛ فسله عما بدالك ؛ فإنه بذلك عليم ، وهو عندنا أمين ، ونستعين بالله العزيز العليم ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، والسلام عليك . »

وقد أحسن أبو عبيدة فى إرسال الكتاب مع رجل خير حصير ثقة ؛ يستطيع أن يشرح ويوضح ، ويمكن الاعتماد عليه ؛ لأن الكتاب مبهما طال لن يصور ما يريد أبو عبيدة

ولأن الكتاب عرضة للضياع أو الوقوع في أيدي الأعداء ؛
فلو ذكر أبو عبيدة جميع التفصيلات والاحتمالات ووجوه
الرأى لاستفاد بها أعداؤه ؛ وأما الرسول الثقة ؛ فإنه سيصمت
حتى يلقي الخليفة فيفضي إليه بكل ما هناك في حكمة وإخلاص .
وجاء رد عمر على الكتاب السابق يلوم أبا عبيدة لأنه
ترك حصص المفتوحة المطمئنة إلى دمشق ؛ فتصبح حصص عرضة
للأعاصير ؛ ولكن عمر حينما يعلم ان القوم اتفقوا على ذلك
يرضى به احتراماً للرأى الجماعية ؛ ويقول في رده : « فعلت
أن الله عز وجل لم يكن ليجمع رأيكم إلا على توفيق وصواب
ورشد في العاجلة والعاقبة ؛ فهون ذلك على ما كان دخلني من
الكراهية قبل ذلك لتحوالكم ، وهذا غاية ما يعرف عن
الخلفاء والأمراء من احترام لرأى الجماعة ، وحسن ظن به .
وكان عمرو بن العاص حينئذ على « إيليا » ، فأرسل ابنه
عبد الله بكتاب إلى أبي عبيدة يخبره فيه أن أهل إيليا وكثيراً
من كان المسلمون صالحوهم من أهل الأردن قد نقضوا العهد ،
وتجروا على جماعة المسلمين بعد انسحاب الجيش الإسلامي من
المواطن التي كان فيها سابقاً ؛ وطلب عمرو من أبي عبيدة أن
يكتب إليه بالرأى : أيتظر بأبي عبيدة حتى يقدم عليه ، أم
يسير عمرو إلى أبي عبيدة ؟ وطلب عمرو المدد ليقوى ويضبط

ما عنده ؛ فكتب إليه أبو عبيدة كتاباً تظهر فيه المهاراة الحربية ، والمكيدة الفنية التي دبرتها كتائب الجيش الإسلامي لأعدائهم ؛ فهو يبين أن الجيش قد انسحب عما انسحب عنه للاستدراج لحسب ، وليبرز المشركون من مكائهم ، فتحدد مواطنهم ، ومن جهة أخرى يتجمع المجاهدون المسلمون ويتوحدون ؛ وأبو عبيدة في الوقت نفسه على يقين من النصر ؛ لأنه ذو ثقة بالله ، ولأنه يعرف سنة الله ، وهي أن ينصر المؤمنين ، وأن يخذل المبطلين . ثم يدخل الطمأنينة على قلب عمرو بن العاص ، ويخبره أنه قادم إليه بالجوع فلا يخشى شيئاً ... يقول أبو عبيدة في كتابه هذا :

« أما بعد .. فقد قدم على عبد الله بن عمرو بكتابك ، تذكر فيه إرجاف المرجفين ، واستعدادهم لك ، وجرأتهم عليك ، للذي بلغهم من انصرافنا عن الروم ، وما خلىنا لهم من الأرض ؛ وإن ذلك — واخذه الله — لم يكن من المسلمين عن حذف من بصائرهم ، ولا وهن من عدوهم ؛ ولكنه كان رأياً من جماعتهم ، كادوا به عدوهم من المشركين ليخرجوهم من مدائنهم وحصونهم وقلاعهم ، وليجتمع بعض المسلمين إلى بعض ، ويحشموا من أطرافهم ، وينضم إليهم من كان قريبهم ، وينتظرون قدوم أمدادهم عليهم ، ثم يناهضونهم

إن شاء الله ، وقد اجتمعت خيلهم ، وتامت فرسانهم ،
ووثقنا بنصر الله أوليائه ، وإنجاز موعده ، وإعزاز دينه ،
وإذلال المشركين ، حتى لا يمنع أحدهم أمه ولا حليلته ولا
نفسه ، حتى يتوقلوا (١) في رؤوس الجبال ، ويعجزوا عن منع
الحصون ، ويجنحوا للسلم ، ويلتمسوا الصلح ، سنة الله التي
قد خلت من قبل ولن يجد لسنة الله تبديلاً .

ثم أعلم من قبلك من المسلمين أنى قادم عليهم بجماعة أدل
الإسلام إن شاء الله ، فليحسنوا بالله الظن ، ولا يحدن أهل
حربكم وعدوكم فيكم ضعفاً ولا وهناً ولا فشلاً ، فيغتمزوا
فيكم ، ويتجرأوا عليكم ، أعزنا الله وإياكم بنصره ، وألبسنا
وإياكم عافيته وعفوه ، والسلام عليكم .

وقد بعث هذا الكتاب في نفس عمرو الثقة والقوة ،
فوجه إلى أهل دإلياء ، (بيت المقدس) وبطارقتها كتاباً
شديداً عنيفاً ، وفيه يقول : « فاقبلوا إلينا حتى أكتب لكم
كتاباً أماناً على دماءكم وأموالكم ، وأعقد لكم عقداً تؤدون

إلى به الجزية عن يد وأتم صاعرون ، وإلا فوالله الذى
لا إله هو لأرمينكم بالخييل بعد الخيل ، وبالرجال بعد الرجال ،
ثم لا أقلع عنكم حتى أقتل المقاتلة ، وأسى الذرية ،
وتكونوا كآمة كانت ، فأصبحت كأنها لم تكن . .

هكذا تكون القوة المؤمنة المقتدرة ، التى تنصف أولاً من
نفسها ، وتعطى كل ذى حق حقه ، وتدعو الى صراط الحق
والمعدلة ، فان أبى المدعوون الى هذا أن يستجيبوا لصوت
الإنصاف والاعتدال ، لم يبق الا السيف ، ولم يبق الا الرمي
بالخييل بعد الخيل ، وبالرجال بعد الرجال
ليت شعري أن حاضرتنا من ماضينا ؟ وأن ادعاء الحلم
عند المعجزة الضعفاء من اعتدال القدرة عند الكلمة الاقوياء ؟

عذر اليرموك

خرج أبو عبيدة رضى الله عنه من دمشق بجيش المسلمين ، إلى بلاد الأردن ؛ وكان في مقدمة الجيش البطل المغوار ، والسيف الإلهى المسلول خالد بن الوليد ، وصاروا حتى نزلوا وادى اليرموك ؛ وجاء عمرو بن العاص بمن معه فانضم إلى الجماعة ، وتحركت جموع الروم ، واقربت من حى المسلمين ؛ فقال معاذ بن جبل رضى الله عنه ورجال المسلمين لأبي عبيدة : ألا تكتب إلى أمير المؤمنين تعلمه علم هذه الجيوش التى جاءتنا وتسأله المدد ؟

وكتب أبو عبيدة إلى عمر كتاباً تلوح فيه الدقة الدقيقة ؛ فهو يصور الحال تصويراً بليغاً ، وهو يخبر عمر عن رجال العدو فى تفصيل وشمول ، مع اختصار أيضاً ، ويطلعه على الحقيقة القاسية ؛ وهى الضيق المحيط بالجيش الإسلامى ، ثم يذكر أنه لم يخدع جنود الجيش عن حقيقة الحال ؛ بل أطلعهم عليها ، ليكونوا على بينة منها ؛ فلا يغتروا ولا يفرطوا ؛ ثم يطلب المدد من عمر ؛ وإلا فقد ذهبت نفوس المسلمين إن أقاموا وثبتوا ، أو ذهب دينهم عنهم إن أضلهم الشيطان ففرقهم ... وأرسل أبو عبيدة كتابه مع عبد الله بن قرقط التاملى

قال أبو عبيدة رضى الله عنه :

« أما بعد .. أخير أمير المؤمنين — أكرمه الله — أن
الروم تفرّت إلى المسلمين برأ وبحراً ، ولم يخلفوا وراءهم
رجلاً يطيق حمل السلاح إلا جاشوا به ، وأخرجوا معهم
القسيسين والأساقفة ، ونزالت إليهم الرهبان من الصوامع ،
واستجاشوا بأهل أرمينية وأهل الجزيرة ، وجاءونا وهم نحو
من أربعائة ألف رجل ؛ وإنه لما بلغنى ذلك من أمرهم ،
كرهت أن أغر المسلمين من أنفسهم ، أو أكتمم ما بلغنى
عنهم ؛ فكشفت لهم عن الخبر ، وشرحت لهم الأمر ،
وسألتهم عن رأى ؛ فرأى المسلمون أن يتنحوا إلى أرض
الشام ، ثم يضم إلينا أطرافنا وقواصينا ، وتكون بذلك
المكان جامعتنا ، حتى يقدم علينا من قبل أمير المؤمنين المدد
لنا ؛ فالمعجل المعجل يا أمير المؤمنين بالرجال بعد الرجال ،
وإلا فاحتسب أنفس المؤمنين إن هم أقاموا ، ودينهم منهم إن
هم تفرقوا ، فقد جاءهم ما لا قبل لهم به ، إلا أن يمدح الله
بملائكته ، أو يأتيهم بغياث من قبله ؛ والسلام عليك . »

وأحب أن ألاحظ معك ملاحظة من ناحية الصيغة في
كتب أنى عبيدة غالباً — ولعلها أيضاً توجد في كتب غيره —

هي أنه إذا كتب في نصر أو فتح أو أمر عادي أو محتمل بسط في المقدمة ، فاستفتح بالبسملة ، ثم تلى باسم المرسل إليه وباسمه ، ثم ثلث ، بالسلام ثم انتقل إلى حمد الله الذي لا إله إلا هو ، ثم انتقل إلى الموضوع بموله (أما بعد) فتأتى الصيغة هكذا تقريباً : د بسم الله الرحمن الرحيم : اعبد الله عمر أمير المؤمنين من أبي عبيدة بن الجراح : سلام عليك : فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو : أما بعد .. فآخذ الله الذي آفاه علينا وعليك يا أمير المؤمنين ... إلخ .. وذلك كما جاء في صدر كتاب أبي عبيدة إلى عمر بشأن الصلح مع أهل حمص ، وقد تقدم .

ولا عجب في هذا البسط المناسب : فالمقام مقام تهنئة ، أو مشورة معتادة ، والفكر متبهي ، والنفس هادئة : فتستطيع أن تأتي بالكلام على وجهه : مستوفياً أركان الرسالة المعتادة . وأما حين يكتب في شدة طارئة ، أو نازلة محيطة ، أو موقف غضيب فإنه يختصر الكلام اختصاراً ، ويختزله اختزالاً ، فيدير في نفسه الاستمانة باسم الله وهديته ، وجمده والثناء عليه ، لكي لا تهوت الفرصة ، ويتأخر الكتاب ولكي يكون عريخ التائين وعاجله في نفس المرسل إليك :

ولذلك نراه في هذه يبتدئها مباشرة بقوله :
 « أما بعد .. فأخبر أمير المؤمنين — أكرمه الله — أن
 الروم تفرّت إلى المسلمين برأً وبحراً .. إلخ .

وقد رد عليه عمر رضى الله عنه بخطاب طويل ؛ يثبت
 فيه ويطمئنه ، وينبئ عنه الخوف والفرع ، ويذكره بالذين
 استشهدوا في سبيل الله ؛ فأثنى عليهم خيراً ، ويذكره بقوة
 الله وحوله وقدرته ؛ ويقول له فيما يقول : « واقرأ كتابي
 هذا على الناس ، ومرهم فليقاتلوا في سبيل الله ، وليصبروا
 كما يؤتيهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة » .
 وبعث عمر إلى أبي عبيدة سعيد بن عامر بن حذيم في جيش
 مدداً له .

وبدأت بين المسلمين والمشركين موقعة اليرموك في سنة
 خمس عشرة ، وانتهت فيها المسلمون انتصاراً رائعاً ، وانهمز
 المشركون ؛ ولما وصل خبر الهزيمة إلى ملك الروم ، وهو
 بأنطاكية أمر أصحابه بالاستعداد للرحيل إلى القسطنطينية ؛ فلما
 خرج من أرض الشام ، وأشرف على أرض الروم استقبل
 الشام بوجهه وقال : « السلام عليك يا سورية ، سلام مودع
 لا يرى أنه يرجع إليك أبداً » .

ثم أرسل أبو عبيدة ميسرة بن مسروق مع ألفين من الفرسان ليتبعوا آثار القوم ، ويقطعوا عليهم كل مدخل يدخلون منه ، ثم عاد فأدركه الخوف على ميسرة ومن معه ؛ وخاصة حينما بلغه أنهم دخلوا في دروب الروم ، فجزع جزعاً شديداً ، وندم على إوسا لهم في طلب الروم . وعجل فأرسل إلى ابن مسروق الكتاب التالي :

« أما بعد .. فإذا أتاك رسولي هذا فأقبل إلى حين تنظر في كتابي هذا ، ولا تعرجن على شيء ؛ فإن سلامة رجل واحد من المسلمين أحب إلى من جميع أموال المشركين ، والسلام عليك . »

وأرجو أن تعود مرة أخرى فتلاحظ إيجاز الكتاب ، وكيف بدأ بلا تطويل : « أما بعد ؛ فإذا أتاك رسولي هذا فأقبل إلى حين تنظر في كتابي هذا . »

كما يجب أن نلاحظ هذا الحرص النبيل على حياة الجنود ، والعجلة في إصلاح الخطأ ، والسرعة في توفير السلامة لمن تتعرض حياتهم للخطر ؛ وذلك ديدن القائد المخلص الأمين .

إلى أهل إيلياء

هذا كتاب كتبه أبو عبيدة إلى أهل إيلياء ، وفيه نرى طرازاً آخر من كتابة أبي عبيدة .. إنه هنا حازم صارم ، يحسن الدعوة إلى دينه أولاً ، ويبين ثمرات الاهتداء إليه والإذعان له ثانياً ، ويحدد ما يجب على مخالفه ثالثاً من إعطاء الجزية عن تسليم وخضوع .. ثم .. ثم تأتي الأخيرة التي لا خالفة لها ، وهي الجهاد الصادق ؛ فلما النصر المفضى إلى العزة في الحياة ، ولما الشهادة المؤدية إلى نعيم الخلود .

كتب أبو عبيدة إلى أهل إيلياء يقول :

بسم الله الرحمن الرحيم ؛ من أبي عبيدة بن الجراح إلى بطارقة أهل إيلياء وسكانها : سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله العظيم ورسوله ؛ أما بعد .. فإننا ندعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور ؛ فإذا شهدتم بذلك حرمت علينا دماؤكم وأموالكم ، وكنتم إخواننا في ديننا ؛ وإن أبيتم فأقروا لنا بإعطاء الجزية عن يد وأنتم صاغرون ؛ وإن أبيتم سرت إليكم بقوم هم أشد حياءً للوث منكم للحياة ولشرب الخمر وأكل اللحم الخنزير ، ثم لا أرجع عنكم إن شاء الله حتى أقتل مقاتلكم ، وأسبي ذراريكم .

وصف انتصار اليرموك

وكتب أبو عبيدة إلى أمير المؤمنين عمر خطاباً يصف له فيه معركة اليرموك بتحديد موضح : وكيف قاتل المسلمون في هذه المعركة قتال الأبطال الصناديد ، ويصور له النصر المجيد ، ويذكر له ما كتب به أهل «إيلياء» ، وما عرضه عليهم من عروض ؛ ولا تنس أن الموقف هنا موقف نصر وبشر ، وهمدوء واطمئنان ؛ وإذن فليكن هناك متسع للبسمة والتسمية ، والسلام والتهليل ، والحمد لله والثناء عليه ، فيقول :

« بسم الله الرحمن الرحيم ؛ لعبد الله عمر أمير المؤمنين من أبي عبيدة بن الجراح . سلام عليك ؛ فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ؛ أما بعد .. فالحمد لله الذي أهلك المشركين ونصر المسلمين ؛ وقديماً ما تولى الله أمرهم ، وأظهر فلحهم ، وأعز دعوتهم ؛ فتبارك الله رب العالمين .. أخبر أمير المؤمنين — أكرمه الله — أنا لقينا الروم ؛ وهم جموع لم تلق العرب مثلاً جموعاً قط ؛ فأتوا وهم يرون أن لا غالب لهم من الناس أحد ، فقاتلوا المسلمين قتالاً شديداً أما قوتى المسلمون مثله في موطن قط ، ورزق الله المسلمين الصبر ، وأنزل عليهم النصر ؛ فقتلهم الله في كل قرية وكل شعب ، وكل واد وجبل

وسهل ، وغنم المسلون عسكرهم ، وما كان فيه من أموالهم ومتاعهم ؛ ثم إنى أتبعتمهم بالمسلمين ، حتى بلغت أقاصى بلاد الشام ؛ وقد بعثت إلى أهل الشام عمالى ، وقد بعثت إلى أهل إيلياء أدعومهم إلى الإسلام ؛ فإن قبلوا ، وإلا فليؤدوا إلينا الجزية عن يد وهم صاغرون ؛ فإن أبوا سرت إليهم حتى أنزل بهم ، ثم لا أزايلهم حتى يفتح الله على المسلمين إن شاء الله ؛ والسلام عليك .

وقد رد عليه عمر بخطاب يحمد الله فيه ، ويشكره على صنيعه ، ثم يقول لأبى عبيدة فيه : « ثم اعلوا أنكم لم تظهروا على عدوكم بعدد ولا عمدة ، ولا حول ولا قوة ؛ ولكنه بمون الله ومنه وفضله ؛ فله الطول والمن والفضل العظيم ... » .

وليس ذلك من عمر تهويناً لشأن الاستعداد ، أو إلغاء لقيمة العتاد .. كيف والله يقول : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ؛ ولكنه تذكير من عمر بتوفيق الله ، ونصح باستصحاب الإيمان ، واليقين بقوة الله العلى القدير .

استسلام أهل إيلياء

انظر أبو عبيدة أهل إيلياء ؛ فأبوا أن يأتوا ليصالحوه
فحاصرهم وضيق عليهم ، ونشب القتال بين الفريقين حيناً ؛
وكان أبو عبيدة قد ولى سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل على
دمشق ليرواها ؛ فلما علم سعيد بأن القتال قد دار بين المسلمين
والمشركين تحرق شوقاً إلى الجهاد في سبيل الله ، وفضل حياة
الميدان على ولايته لدمشق ، فأسرع بإرسال الكتاب الآتي
إلى أبي عبيدة :

« من سعيد بن زيد إلى أبي عبيدة بن الجراح .. سلام عليك ،
فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد .. فإنني
لعمري ما كنت لأوثرك وأصحابك بالجهاد في سبيل الله على
نفسى ، وعلى ما يقربني من مرضاة ربي عز وجل ؛ فإذا
أتاك كتابي هذا فابعث إلى عمك من هو أرغب فيه مني ،
فليعمل لك عليه ما بدا لك ، فإنني قادم عليك وشيكاً ، إنه
شاء الله ؛ والسلام » .

فلما قرأ أبو عبيدة الكتاب قال : « أشهد ليفعلنا ... »
وأرسل يزيد بن أبي سفيان ليكون والياً على دمشق مكان

عبيد بن زيد ... وبمثل سعيد ، وروحه الجهادية
اقتصر المسلمون .

ولما رأى أهل د إيلياء ، أن أبا عبيدة لن يقلع عنهم ،
موانهم لا طاقة لهم بحربه سألوه الصلح ، واشتروطوا أن يكون
عمر هو الذى يعطيهم العهد والأمان ؛ فقبل ذلك أبو عبيدة ،
يوم بالكتابة إلى عمر ؛ فنصحه معاذ بن جبل ألا يكتب
حتى يستوثق منهم ، ويخلفوا على ذلك ؛ إذ ربما يحضر عمر
ويتقض القوم عهدهم ؛ فاستوثق منهم أبو عبيدة ، وكتب إلى
أمير المؤمنين الكتاب التالى :

بسم الله الرحمن الرحيم ؛ لعبيد الله عمر أمير المؤمنين
من أبى عبيدة بن الجراح ؛ سلام عليك ؛ فإنى أحمد إليك الله
الذى لا إله إلا هو ؛ أما بعد .. فإننا أقمنا على د إيلياء ، ؛
وظنوا أن لهم فى المطاولة بهم فرجا ورجاء ؛ فلم يزددهم الله
بها إلا ضيقاً وقصاً ، وهزلاً وأزلاً (١) ؛ فلما رأوا ذلك
سألونا أن نعطيهم ما كانوا به ممتنعين قبل ذلك ؛ وله كارهين ،
ولهم سألوا الصلح ، على أن يقدم عليهم أمير المؤمنين ، فيكون

(١) الأول بوزن الفعج : الضيق والمدة

هو المؤمن لهم ، والكاتب لهم كتاباً ؛ وإنا خشينا أن يقدم
 أمير المؤمنين ، ثم يغدر القوم فيرجعون ، فيكون مسيرك
 — أصلحك الله — عناء وفضلاً (زيادة) ، وأخذنا عليهم
 الموائيق المغلظة بأيمانهم : لئن أنت قدمت عليهم فأمنتهم على
 أنفسهم وأموالهم ليقبلن ذلك ، وليؤدن الجزية ، وليدخلن
 فيما دخل فيه أهل الذمة ؛ ففعلوا ، وأخذنا عليهم الموائيق
 بذلك ؛ فإن رأيت يا أمير المؤمنين أن تقدم علينا فافعل ،
 فإن في مسيرك أجراً وصلاحاً وعاقبة للمسلمين ؛ أراك الله
 مرشدك ، ويسر أمرك ؛ والسلام عليك .

وقدم عمر بناء على ذلك ، حتى بلغ أرض الشام ، ونزل
 بالجابية ، وأتاه أهل دإلياء ، فصالحهم ، وكتب لهم أماناً هو
 صورة من صور العدالة الإسلامية ، ومثل من أمثلة الحرية
 الدينية ، التي أتاحتها المسلمون المنتصرون في عصورهم الزاهرة
 لمخالفهم في الدين ؛ ومن الخير أن تثبت هنا نص ذلك العهد ؛
 وإن يكن هذا استطراداً فأنعم به من استطراد ...
 وهذا نص الميثاق :

« بسم الله الرحمن الرحيم .. هذا ما أعطى عبد الله عمر
 أمير المؤمنين أهل دإلياء ، من الأمان ؛ أعطاهم أماناً لأنفسهم
 وأموالهم ، ولكنائسهم وحبليانهم ، وسقيمهم وبريئهم ، وسائر

حلتهم ، أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ، ولا ينتقص منها
 حولا من حيزها ، ولا من صليبهم ، ولا من شيء من
 أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم ،
 ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود .

وعلى أهل د إيلياء ، أن يعطوا الجزية ، كما يعطى أهل
 القلدائن د مدائن الشام ، ، وعليهم أن يخرجوا منها الروم والصوت
 (الصوص) ، فن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله ،
 حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن أقام منهم فهو آمن ، وعليه مثل
 ما على أهل د إيلياء ، من الجزية .

ومن أحب من أهل د إيلياء ، أن يسير بنفسه وماله مع
 الروم ، ويخلى بينهم وصلبهم ، فإنهم آمنون على أنفسهم ،
 وعلى بيعهم وصلبهم ، حتى يبلغوا مأمنهم .

ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل د فلان ، فن
 شاء منهم قعد ، وعليه مثل ما على أهل د إيلياء ، من الجزية ،
 ومن شاء سار مع الروم ، ومن شاء رجع مع أهله ، فإنه
 لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم .

وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله ، وذمة رسوله ، وذمة
 الخلفاء وذمة المؤمنين ، إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية .

شهد على ذلك خالد بن الوليد ، وعمر بن العاص ،
وعبد الرحمن بن عوف ، ومعاوية بن أبي سفيان .
وكتب وحضر سنة خمس عشرة .

قل لأولئك الجاهلين الذين يسيئون بالإسلام الظنون ، ويفترون
عليه ما هو منه برى . قل لهؤلاء : هذا لون من ألوان العدالة
الإنسانية في الإسلام ، وهذا مظهر من مظاهر القسطاس الإسلامى
فى الوقت الذى يشعر فيه المسلمون بقوةهم وغلبتهم وانتصارهم
وللقوة سورة ، وللغلبة نشوة ، وللانتصار سكرة . ولكن
أبناء الإسلام لا ينسون العدل أينما كانوا : « اعدلوا هو أقرب
للتقوى » ، « ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها » ، وإذا
حكمت بين الناس أن تحكموا بالعدل ، وصدق الرسول :
« اتقوا الظلم فإنه ظلمات يوم القيامة » .

كتاب قرآني

في فتوح الشام حاصر المشركون أبا عبيدة وجيشه ، وضيقوا عليهم ؛ فأصابهم جهد وتعب ؛ فكتب إليه عمر مهوناً ومشجعاً ، يقول :

« سلام عليك ، أما بعد .. فإنه لم تكن شدة إلا جعل الله بعدها فرجاً ، ولن يغلب عسر يسرين (يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون) ، ، .

كتاب في غاية الإيجاز ، نحو نصفه من القرآن (١) ، وهو لا يزيد عن أربع جمل ؛ وكأنما لاحظ أبو عبيدة هذا فأجاب بنفس الطريقة ، فجعل كتابه اقتباساً من القرآن ، وكان موقفاً في الاختيار ، إذ اختار آيتين ؛ أما الأولى منهما ففيها أبلغ تصوير للحياة الدنيا وسرعة زوالها ، وأما الثانية ففيها وصف للنعيم المقيم ، وفضل الله العظيم ؛ قال أبو عبيدة :

(١) النصف الأخير من نص القرآن ، والنصف الأول فيه أيضاً استمداد من القرآن ، فالجملتان الثانية تذكر بقوله تعالى : « ومن يتق الله يجعل له مخرجاً » ، والجملتان الثالثة تذكر بقوله تعالى : « فان مع العسر يسراً » ، وإن مع العسر يسراً » .

و سلام عليك ؛ أما بعد .. فإن الله تبارك وتعالى قال :

« إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتمكثرون في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطالاً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ، سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السموات والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، . »

عظة لابي عبيدة

هذه عظة لابي عبيدة رضى الله عنه ؛ وستراها قريبة في
 خصائصها من كتاباته ؛ فهي وجيزة وواضحة ، ومبسطة
 بيسمة الإيمان بالله وحسن الظن فيه ؛ يقول :
 « أيها الناس .. رب مبيض ثيابه وهو مدين فديته ،
 رب مكرم لنفسه وهو لها مدين ، أدركوا السيئات التمدنيات
 بالحسنات الحديثات ؛ فلو أن شخصا أذنب حتى بلغت ذنوبه
 السماء ، ثم أحسن جاءت حسنة فغلبت سيئاته .
 وهذه الغلبة طبعاً تتحقق عند التوبة الصادقة ، والندم
 الصحيح ، والاستقامة على الطاعة .

خطبة تحريض

في واقعة حمص أراد أبو عبيدة أن يحرض الناس على الجهاد : فخطب فيهم قائلا :

« أيها الناس : إن هذا يوم له ما بعده ، أما من حي منكم فإنه يصفر له ملكه وقراره ، وأما من مات منكم فإنها الشهادة ، فأحسنوا بالله الظن ، ولا يكرهن إليكم الموت أمر قد اقترفه أحدكم دون الشرك : توبوا إلى الله وتمرضوا للشهادة ، فإني أشهد - وليس أوان الكذب - أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة .. »

وخطبته - كما ترى - مثل عظته ، وكتابتها قصيرة ، واضحة ، شافية ، مؤمنة ..

نهاية أبي عبيدة

لكل حياة نهاية مهما طال ، كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ، ... وأبو عبيدة أحد الناس ؛ ولا بد أن يجرى عليه ما جرى ويجرى عليهم ؛ ولقد عظمت حياته ما عظمت ، وتمددت صفحات البطولة فيها ما تمددت ؛ ولكن لابد للحياة من خاتمة ، ولا بد للكتاب من طي ... وقد كان ..

ظهر الطاعون في أرض الشام وأبو عبيدة بها ؛ ويروح أن ظهوره يرجع إلى آثار الدماء ، وكثرة جثث القتلى بسبب كثرة المعارك ، وتلوث المياه ، وعدم الالتفات إلى وسائل الوقاية والتطهير ، والتخلص من الجرائم التي تتكاثر في تلك الحالة ، وقد بدأ الطاعون في بلدة عواس ، وهي بين الرملة وبيت المقدس ، وعلى بعد أربعة فراسخ من الرملة ؛ وكان ابتداءه في السنة الثامنة عشرة للهجرة ؛ ومن عواس انتشر في البلاد ، ونشأ بين العباد ، حتى قضى على كثير منهم يعدون بعشرات الآلاف ، حتى قيل - كما في رواية ابن عساكر - إن أبا عبيدة كان في ستة وثلاثين ألفاً من المسلمين ، فلم يبق منهم إلا ستة آلاف رجل ...

وكان أبو عبيدة أمير القوم : وكان يرى أن الطاعون يشتغل في الناس ، ويؤدي بهم إلى الهلاك ؛ ولكن كيف يتركهم وهو قائم ؟ .. ثم هو يذكر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها ، وإذا وقع بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا منها » .
 ثم هو رجل مرن موقن زاهد ؛ لا يرغب في الدنيا ، ولا يحب طول البقاء فيها ؛ وما عند الله خير وأبقى ؛ فما حرصه على الحياة ؟ وما تمسكه بأسبابها ؟ .. لقد عاش ما عاش ، وطعم ما طعم ، وبلغ من المجد ما بلغ ، وقيل له ما قيل ؛ وكل ذلك يندر أمامه قليلا ضئيلا بجوار ما وعد الله به عباده المؤمنين من نعم مقيم د وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون . .

وإذن فليبق أبو عبيدة بين القوم ، وليحتل معهم ما يحتملون ، وليكن ما يكون .. رضينا بقضاء الله وقدره ، رضينا بالله قسما وحظاً .. ولو جاء أحد في هذا الوقت يحدث أبا عبيدة عن العدوى ، وعن الحيلة والوقاية ، وعن النصوص التي جاءت في القرآن والسنة عن هذا الموضوع ، لما كذبه أبو عبيدة ؛ ولكنه المتحدث لن يجد الأذن السميعة المستجيبة من أبي عبيدة فقد كان يهم في واد آخر من الإعراض عن الدنيا ، ومن

الاستهانة بمقاعها ، والبقاء فيها .

وإذا كان هناك جاهلون أو مغرضون قد زعموا أن مؤامرة عقدت بعد موت الرسول صلى الله عليه وسلم بين أن بكر وعمر وأبي عبيدة ليتولوا الخلافة بالتتابع ؛ فهذا هو الرد المفعم المسكت لهُؤلاء .

هذا أبو عبيدة في الشام ؛ وهذا هو الطاهون ينتشر ؛ وهذا هو عمر قد مضى عييه في الخلافة سنوات ؛ وهو إن عاش حيناً فسيموت بعد حين ؛ بل هو عرضة للموت في كل حين . وما تدري نفس بأى أرض تموت ، ... فلماذا لا يكون أبو عبيدة بجانب عمر في المدينة حتى إذا أصابته نازلة القدر تسلم منه أبو عبيدة مقاليد الخلافة ؟ .. أمجزه السبب الذي ينتمسه للعودة إلى المدينة ؟ .. إنه ليستطيع أسباباً لا سبباً واحداً ؛ فقد انتهى الفتح ، وكل دور أبي عبيدة في قيادة الجيش ؛ ويستطيع غيره من القواد المتعاونين معه أن يلى أمر الجيش ، ويعود هو إلى المدينة ترقباً لمقعد الخلافة الرموف منه كما يزعم أولئك المتخرضون ؟ ..

لكن أبا عبيدة لم يفعل ؛ لأنه لم يطمع ، ولأنه لم تمكن هناك مؤامرة إلا في نفوس المفتزين المغرضين ، الذين يتلصسون لأعلام الإسلام عيوب الاقتراء والأوهام ، كما يتلص أهل

الحقد والبغضاء لجمال الحسناء عيباً من الهواء ؛ فيمسيهم
ذلك في الأرض أواني السماء ، فيقولون : وما ذلك لها
في الضياء ؟ .

بل هناك « جبهة » التي تقطع قول كل خطيب ... هناك
البرهان الذي ليس كمثل برهان .. لقد بلغ خبر الطاهون ، إلى
أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وهو يعرف من أبي عبيدة
زهد و قوة حيطته في مثل هذه الأمور ؛ فأراد أن يستقدمه
إليه ليبعد به عن موطن الوباء ، وحارل أن يستدرجه في
هذا الاستقدام ؛ فلم يذكر له أنه خائف عليه ، أو أنه راجع
في نجاته . بل ذكر له أن هناك أمراً جليلاً من أمور الرعية
لا يتم بحشه إلا بمشافة بين أبي عبيدة وأمير المؤمنين ؛ فكتب
عمر إليه يقول :

« سلام عليك ؛ أما بعد .. فإنه قد عرضت لي إليك
حاجة أريد أن أشفك فيها ، ؛ فعزمت عليك إذا نظرت في
كتابي هذا ألا تضعه من يدك حتى تقبل إلى . »
الامر هنا هو الخليفة أمير المؤمنين ، راعي الأمة وأمينها
الاول ؛ وقد اتخذ لكتابه صورة الكتاب الذي يكتب في
الشذائد والأزمات فاختصر المقدمات ، وقلل الكلمات

وهو يقسم على أن عبدة ، ويؤكد عليه أن يجب نداءه فيقبل إليه بأسرع ما يستطيع ؛ إذ بمجرد أن ينظر في الكتاب يبدأ في الرحيل إلى أمير المؤمنين ، ولا ينتظر قليلاً ولا كثيراً ، بل لا يضع الكتاب من يده حتى يبدأ في الإقبال على عمر .

ليس وراء ذلك في مثل هذه الحال بقية للتأكيد وإظهار الاهتمام .. ولكن العجيب — واستمعوا أيها المرجفون إن كنتم تسمعون — أن أبا عبدة لم يجب ، على الرغم من كمال التهيؤ في الموقف لتسويغ الاستجابة ، مع عدم الظن بأن أبا عبدة أراد الفرار من قدر الله وهو الطاعون ١١.

لم يجب أبو عبدة ، لا عن جهل بالطاعون وعدواه فهو يرى ويسمع إن لم يكن يعرف ويعلم ، ولا عن رغبة في إلقاء نفسه إلى التهلكة ؛ ولكنه الزهد في الحياة ، والخلل من تركه حينئذ يكتيون بالبلاء مهما كانت الأسباب التي تدعوه إلى الإقبال .

ولم يجب أبو عبدة لأنه أدرك ما أراده عمر — رضى الله عنهم — ، وعلم أنه إنما أراد أن يستخرجه من منطقة اللؤيم ؛ فقال : يغفر الله لأمير المؤمنين ..! وكما تحمل هذه الدعوة من رموز وإشارات ١.

ثم كعب أبو عبيدة إلى أمير المؤمنين يقول :

« يا أمير المؤمنين ؛ إني قد عرفت حاجتك إلى ؛ وإني
في جند من المسلمين ، لا أجد بنفسى رغبة عنهم ، فليست
أريد فراقهم حتى يقضى الله في وفيهم أمره وقضاه ، خلقت
من هزمتك يا أمير المؤمنين ودعنى في جندى ، .
والكتاب كما ترى فيه ذكاء والمعية ، وفيه تسويغ للبقاء
وعدم الاستجابة للرجاء ، وفيه إشارة إلى « جند من المسلمين »
لا يليق بقائهم أن يتركهم في الوباء ، وينأى عنهم بنفسه
وهو المسئول الأول عنهم ، وفيه رضاً بنفسى من أنى عبيدة
بالبقاء معهم ، فلا يجد بنفسه « رغبة عنهم » ، وفيه تذكّر
لقضاء الله وقدره اللذين يغلبان الحيلة والوسيلة حينما يريد
اللطيف الخير ، وفيه حسن خطاب من أنى عبيدة حين يسأل
عمر أن يجعله في حل من عزمه وتأكيده عليه بالمسير ، ثم
يختم الكتاب بلب السبب ، وعماذ الأمر هنا وهو : « ودعنى
في جندى ، . »

وقد وصل الكتاب السابق إلى عمر ؛ فلما قرأه بكى ،
وظن من حوله أن قضاء الله قد نزل بأنى عبيدة ؛ فقد سمعوا
باعتبار الطاعون وسعة فتكه بالمسلمين من قبل ، فقالوا يا أمير
المؤمنين ، أمان أبو عبيدة ؟ فأجاب إجابة نافية مثبتة قال :
« لا ، وكان قد ، ؛ أى لم يمت بعد ؛ ولكنه على أبواب

الموت ؛ وذلك موقف من مواقف الإلهام العمرى الذى أشار إليه رسول الله صلوات الله وسلامه عليه .

ولما رأى عمر إصرار أبى عبيدة على البقاء ، ووقف على النكبات التى أصيب بها المساكين من هذا الوباء ، كتب إلى أبى عبيدة كتاباً بنصحه فيه بأن يتحول بالناس من الأرض الرطبة الوخمة التى كانوا فيها ، وهى أرض الأردن يومئذ ، إلى أرض جافة ، طيبة الهواء ، قليلة الهوام وهى الجابية ، فقال له فى كتابه :

« سلام عينا . : أما بعد .. فإنك أنزلت الناس أرض الأردن وهى أرض غمقة (١) ، فأرفعهم إلى أرض الجابية ؛ فإنها أرض مرتفعة نزهة » (٢) .

ولما وصل كتاب عمر إلى أبى عبيدة لم يجد فيها احتواء من مشورة غضاضة ؛ فاستدعى أباً موسى الأشعرى ، وطلب منه أن يبحث للجنود عن البقعة المرتفعة النزهة ، كما أشار أمير المؤمنين .

ولكن لم يغنى الحذر من القدر ؛ فقد أصيب القائد البطل بالطاعون .. أصيب أبو عبيدة .. لم تصبه رماح الإغداة ، ولا سيوف المشركين ، ولا سهام المعارك ، وأصابته جرثومة الطاعون ؛ والله فى خلقه شئون .

(١) غمقة : ذات ندى وثقل ووخامة ، أو قريبة من المياه ..

(٢) نزهة : بعيدة عن المباهات والذباب والهوام القاسد .

وصاية أبي عبيدة

ولما أحس أبو عبيدة بالموت أوصى قبل وفاته بقوله :
 « أقرئوا أمير المؤمنين السلام ، وأعلموه أنه لم يبق من
 أماتي شيء إلا وقد قت به وأديته إليه ، إلا ابنة خاتمة
 نكحت في يوم بقي من عدتها لم أكن قضيت فيها بحكومة ،
 وقد كان بعث إلى بمائة دينار فردوها إليه ، فقائلوا له :
 إن في قومك حاجة ومسكنة ، فقال : ردوها إليه . وادفونني
 من غربي نهر الأردن إلى الأرض المقدسة ، ثم قال : ادفنوني
 حيث قضيت ، فإنني أتخوف أن يكون سنة (أي يعتاد الناس
 ذلك من بعده) .

وكأنه أراد رضي الله عنه أن لا يفتح باباً لتحيين القبور
 وإقامة الأنصاب حولها ، لأن الخلود في الإسلام ليس خلود
 قبور وأجداد ، ولكنه خلود الذكر الخيد بين الناس .
 وفي رواية عن سعيد المقبري قال : لما طعن أبو عبيدة
 ابن الجراح بالأردن - وبها قبره - دعا من حضره من
 المسلمين فقال :

« إني موصيكم بوصية إن قبلتموها لن تزالوا بخير :
 أقيموا للصلاة ، وآتوا الزكاة ، وصوموا شهر رمضان ،

وتصدقوا ، وحجوا واعتصموا ، وتواصوا ، وانصحوا لأمرائكم
ولا تغشوم ، ولا تلهم الدنيا ، فإن امرأ لو عمر ألف
حول ، ما كان له بد من أن يصير إلى مصرعى هذا الذى
ترون .. الله كتب الموت على بنى آدم فهم ميتون ، وأكسبهم
أطوعهم له ، وأعملهم ليوم معاده ؛ والسلام عليكم ورحمة
الله .. يا معاذ بن جبل ، صل بالناس ..

ومات أبو عبيدة ... مات البطل العربى الإسلامى ، مات
القائد الفاتح ، والأمير المؤمن العظيم .

روى أنه انطلق يريد الصلاة فى بيت المقدس ، فأدركه
أجله عند الحل ، فتوفى بها ؛ وقيل إنه توفى فى « بيسان » ،
وقيل فى « الأردن » ، كما سبق ، وقيل فى « عمواس » .. ولا
يضير ذلك كثيراً ، فالمواضع متشابهة ومتقاربة ؛ وقد يكون
أصيب فى موضع ، وورق فى موضع ، ولفظ نفسه الأخير
فى موضع ؛ ولسنا عباد قبور و تراب ؛ ولكننا طلاب
مبادئ وأخلاق .

وكان القضاء استجاب لرغبة أبى عبيدة ؛ فلم يتمين قبره
ييقين ، حتى لا يكون ذلك سنة من بعده ، وحتى تظل سيرة
أبى عبيدة العاطرة شذاً يتردد معطراً للآفاق ، فيكون أليق بأبى
هيبة ، وأنفع لطلاب المظلة والذكرى من ألف قبر وألف تمثال (١)

(١) يقال إن قبر أبى عبيدة موجود بمجمع الجراح بدمشق .

رثاؤه

ولما مات أبو عبيدة وقف خلفه معاذ بن جبل في الناس
يخطبهم راثياً له بصدق فقال :

يا أيها الناس .. توبوا إلى الله من ذنوبكم توبة نصوحا ؛
فإن عبداً لا يلتق الله تائباً من ذنبه إلا كان حقاً على الله أن
يغفر له .. من كان عليه من دين فليقتضه ؛ فإن العبد مرتين
بدينه ؛ ومن أصبح منكم مهاجراً أخاه فليأته فليصالحه ،
ولا ينبغي لمسلم أن يهجر أخاه أكثر من ثلاث .

والدين العظيم إنكم أيها المسلمون لجعتم برجل ما أزعم أني
رأيت عبداً أبر صدراً ، ولا أبعد من الغائلة ولا أشد حبا للعامة
ولا أنصح للعامة منه ؛ فترحوا عليه ، وحمدا لله - واحضروا الصلاة ،
فلنلاحظ أن الموقف موقف رثاء ومشاهدة للموت ،
وتذكر للدار الآخرة ؛ وهو موقف يستيقظ فيه الضمير ،
ويرتفع الفؤاد ، ويستبين بما في الدنيا ، ويأنس بما عند
الله ، ويستكثر ذنوبه ، ويستقل طاعته ، ويهم بإصلاح
شأنه استعداداً للقاء الموت الذي يراه نازلاً بسواه ، ولا يبعد أبداً
أن ينزل به بعد قليل .

ولذلك نرى معاذ بن جبل لا يدخل ذكر أبي عبيدة رحمه

الله — مباشرة ؛ بل يقدم بين يدي ذلك نصحاً بتعجيل التوبة
 الصادة ، وحثاً على قضاء الديون والامانات ، والودائع
 والحقوق ، وتحريضاً على إزالة العداوات ، وإحياء المحبات ؛
 وهو يستوحى كل هذه العظات الاخروية من موقف الموت
 الرهيب ؛ ثم يخلص بعد ذلك إلى رثاء أبي عبيدة فيقتصر على
 كلمات قصار ولكنها كبار .

نعي أبي عبيدة إلى الخليفة

ثم أرسل معاذ بن جبل كتاباً إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فيه أبا عبيدة ، ويصفه بما هو أهله ؛ وهو من خير الكتب في النعي والعزاء المقترنين بالاسترجاع ، وحسن الاستسلام .. قال :

« لعبد الله عمر أمير المؤمنين من معاذ بن جبل : سلام عليك ؛ فبقى أحد إليك الله الذي لا إله إلا هو ؛ أما بعد .. فاحتسب أمراً كان لله أميراً ، وكان الله في عيئه عظيماً ، وكان علينا وعليك يا أمير المؤمنين عزيزاً ؛ أبا عبيدة بن الجراح ؛ خسر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .. إنا لله وإنا إليه راجعون ، وعند الله فحسبه ، وبالله ثق له .. كتبت لك وقد فشا الموت وهذا الوباء في الناس ؛ ولن يخطيء أحداً أجله من الموت ؛ ومن لم يمت فسيموت .. جعل الله لنا ما عنده خيراً لنا من الدنيا ، إن أبقانا أو أهلكنا ؛ لجأنا إلى الله عن جماعة المسلمين ، وعن خاصتنا وعامةنا رحمة ومغفرته ، ورضوانه وجنته ؛ والسلام عليك ورحمة وبركاته .. »

صفة أبي عبيدة

كان أبو عبيدة طوالاً ، نحيفاً ، معروق الوجه ، خفيف
 المعية ، أهنم ؛ وكان يصبغ لحيته بالحناء والكتم .
 وقد مات وهو ابن ثمان وخمسين سنة .
 وروى أنه مات ولم يعقب ؛ وفي أخرى أنه أحقب
 ومات عقبه .
 رضوان الله على أمين الأمة .. أبي عبيدة عامر بن الجراح .

(تم والحمد لله)

فهرس الكتاب

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٣	تقديم من القرآن الكريم	٦٨	حيلة أبي عبيدة
٤	مقدمة المؤلف	٧٣	أبو عبيدة في كلامه
٥	تمهيد	٧٤	في قتال الروم
١٠	من هو أبو عبيدة	٧٩	وعظه للخليفة عمر
١٣	أبو عبيدة في الجاهلية	٨٤	في موقعة جمل
١٥	سبق أبي عبيدة إلى الاسلام	٨٩	عنده لأهل بعليك
١٧	أبو عبيدة من أهل الهجرين	٩١	مع أهل حص
٢٠	أمين هذه الأمة	٩٤	بين حص ودمشق
٢٣	الله خير وأبقى	٩٩	عند اليرموك
٢٦	أبو عبيدة يوم أحد	١٠٤	إلى أهل إيلياء
٢٩	تواضعه ورغبته عن التفاخر	١٠٥	وصف انتصار اليرموك
٣٦	زهد أبي عبيدة	١٠٧	استسلام أهل إيلياء
٣٩	بين عمر وأبي عبيدة	١١٢	كتاب قرآني
٤٥	حفظه لحقوقي سواء		
٥٥	أبو عبيدة في الميدان		
٥٨	نبيل ومروءة		
٦٣	نفوس الكبار تتبادل الاحترام		
٦٥	وهذه أخرى		